المصري الأخير

أحمد حسن محمد أحمد

الفصل الأول

من رواية «المصري الأخير»

كان أحمد رجلاً مصرياً في التاسعة والعشرين من عمره، طويل القامة، أسمر البشرة، بعينين سوداوين هادئتين كأنهما تحملان تاريخ نهرٍ قديم. يحب عبد الناصر كما يحب الإنسان ظل شجرةٍ في يوم قائظ، ويؤمن بالاشتراكية إيماناً ليس فيه تردد. يقرأ كتب اليسار بعينين مفتوحتين، ويحلم بوطنٍ لا يفرّق بين ابن الصعيد وابن الشام، وبين فقير الإسكندرية وفقير اللاذقية. كان من برج العذراء: منظّماً، هادئاً في الظاهر، عميقاً في الباطن، يحب النظام في حياته كما يحب النظام في المجتمع.

في أحد المساءات الباردة من شتاء القاهرة، التقى سلاف.

كانت ابنة السفير السوري في مصر، علوية النسب، من برج الجوزاء. خفيفة الحركة، سريعة الضحك، تتكلم بلهجةٍ شاميةٍ ناعمةٍ تختلط أحياناً بكلماتٍ مصريةٍ اكتسبتها من الشارع. عيناها خضراوان مائلتان إلى الرمادي، وشعرها أسود طويل ينساب على كتفيها كأنه نهرٌ ليلي. أحبها أحمد من أول نظرةٍ لم تكن نظرةً عابرة، بل كانت نظرةً تُشبه اكتشاف شيءٍ كان ينتظره منذ سنوات دون أن يدري.

أحبته هي أيضاً. أحبت صمته الذي لا يخفي شيئاً، وأحبّت طريقته في الكلام عن ناصر وعن الاشتراكية السورية في عهد الأسد، وعن فكرة الوحدة التي لم تتحقق بعد. كانا يجلسان ساعاتٍ طويلة في مقاهي الزمالك أو على ضفاف النيل، يتحدثان عن السياسة والحب والوطن كأنها أشياء واحدة لا تنفصل.

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى صارت المساكنة كاملة.

انتقلت سلاف إلى شقته الصغيرة في المهندسين، شقةٌ بسيطة فيها كتبٌ كثيرة وصورةٌ لعبد الناصر معلّقة فوق المكتب. في الليلة الأولى التي ناما فيها معاً، كان كل شيءٍ هادئاً وبطيئاً. لم يكن هناك استعجال. كان أحمد يرتجف قليلاً وهو يلمس يدها، وكانت سلاف تبتسم ابتسامةً خجولةً لكنها واثقة. نزع كلٌّ منهما عذرية الآخر بهدوءٍ يشبه الصلاة. لم يكن الأمر صاخباً ولا مسرحياً، بل كان عميقاً وهادئاً كالنيل في ليلةٍ بلا قمر. أحسّ أحمد أن جسده يكتشف جسداً آخر لأول مرة، وأحسّت سلاف أن شيئاً داخلها ينفتح على مصراعيه بعد سنواتٍ من الانتظار.

بعدها صارت حياتهما مشتركة تماماً. يستيقظان معاً، يشربان الشاي معاً، يناقشان الأخبار معاً. هو يتكلم عن ناصر وعن حلم الاشتراكية العربية، وهي تتكلم عن سوريا وعن الأسد وعن فكرة أن العلويين والمصريين والفقراء في كل مكان يمكن أن يكونوا أخوة في وطنٍ واحد. كانا يختلفان أحياناً في التفاصيل، لكنهما يتفقان في الجوهر: أن الحب والعدالة شيءٌ واحد.

في المساء كانا يعودان إلى السرير، ليس فقط للشهوة، بل ليؤكدا لأنفسهما أن هذه المساكنة حقيقية. جسداهما يعرفان بعضهما الآن جيداً. أحمد يعرف كيف تتنفس سلاف حين تقترب منه، وسلاف تعرف كيف يرتجف كتفاه حين يقبّلها من الخلف. كانا يأخذان وقتهما، كأن الوقت نفسه صار ملكهما.

وفي إحدى الليالي، بينما كانت سلاف مستلقية على صدره، قالت بصوتٍ خافت:

ـ أنت المصري الأخير الذي أعرفه. المصري الذي ما زال يؤمن بشيءٍ كبير.

ابتسم أحمد، ولم يردّ فوراً. نظر إلى السقف ثم قال:

ـ ولأنت السورية الأخيرة التي أستطيع أن أحبها بهذا العمق. كأننا آخر اثنين في زمنٍ يتفتت.

ضمّها إليه أكثر، وشعر أن قلبه يدقّ ببطءٍ وثقة. خارج الشقة كانت القاهرة تضجّ بالسيارات والنداءات والهموم اليومية، أما داخلها فكان هناك رجلٌ من برج العذراء وامرأةٌ من برج الجوزاء يحاولان، بجسديهما وقلبيهما وأفكارهما، أن يبنيا عالماً صغيراً لا يزال فيه مكانٌ للحب والاشتراكية والوحدة.

وهكذا بدأت قصتهما.

قصة المصري الأخير.

الفصل الثاني

من رواية «المصري الأخير»

انقضى ربيعُ القاهرة بسرعةٍ كأنّه لم يكن، ودخل الصيفُ سنةَ ألفين وعشرة حاملاً معه حرارةً جافةً ووعوداً طويلة. لم يعد أحمد وسلاف يعيشان في شقة المهندسين وحدهما؛ صارت الشقة محطةَ انطلاقٍ صغيرة، مكاناً يعودان إليه بعد كل رحلة ليرتّبا حقائبهما من جديد ويغسلا الغبار عن وجوههما ويضحكا من تعب الطريق.

قضيا الصيف كلّه يطوفان في مصر كأنّهما يحاولان أن يلتقطا آخر أنفاس حضارةٍ قديمة قبل أن يغيّر الزمن ملامحها. بدءا بالقاهرة: تجوّلا في المتحف المصري ساعاتٍ طويلة، وقفا أمام تمثال خفرع وتمثال الكاتب الجالس، وتهامسا أمام مومياوات الفراعنة كأنّهما يخشيان أن يسمعهما الموتى. صعدا إلى القلعة، ونزلا إلى خان الخليلي، وجلسا على مقاهي الحسين يراقبان الناس وهم يمرّون بين الماضي والحاضر.

ثم ذهبا إلى الأهرامات في الجيزة. وقف أحمد أمام هرم خوفو وهو يمسك يد سلاف، وقال بصوتٍ خفيض:

ـ هنا بنى المصريون شيئاً أكبر من الموت.

فردّت هي وهي تنظر إلى الأفق:

ـ وهنا يشعر المرء أن الزمن ليس خطّاً مستقيماً، بل دائرةٌ تعود دائماً.

سافرا إلى الإسكندرية. مشيا على الكورنيش في الصباح الباكر، ودخلا مكتبة الإسكندرية الجديدة، وجلسا أمام البحر ساعاتٍ يتحدثان عن ناصر وعن الوحدة وعن سوريا التي لم ترها سلاف منذ سنوات. كانت تروي له عن دمشق وعن حمص وعن اللاذقية، وهو يستمع كأنّه يسمع عن وطنٍ ثانٍ ينتظره.

ثم اتجهوا جنوباً. زارا المنيا، ومشى أحمد مع سلاف بين مقابر بني حسن وتل العمارنة، حيث كان إخناتون يحلم بإلهٍ واحد. في الأقصر قضيا أياماً كاملة بين معبد الكرنك ومعبد الأقصر ووادي الملوك. في إدفو وقفوا أمام معبد حورس الضخم، وفي كوم أمبو أمام تماسيح التماسيح المقدسة، ثم وصلوا إلى أبو سمبل. هناك، أمام المعبدين المنحوتين في الصخر، أحسّ أحمد أن صدره يتّسع فجأة. قالت سلاف وهي تنظر إلى وجه رمسيس:

ـ كأنّه يحرس شيئاً أكبر من مصر نفسها.

وفي النهاية زارا معبد فيلة في أسوان. جلسا على القارب الصغير وهما يعبران البحيرة، والشمس تغرب خلف الأعمدة، وسلاف تتكئ على كتفه. في تلك اللحظة لم يكن هناك ناصر ولا أسد ولا اشتراكية؛ كان هناك فقط رجلٌ وامرأةٌ يكتشفان أن الحب يمكن أن يكون رحلةً طويلة بين المعابد والآثار والمدن القديمة.

عادا إلى القاهرة في أواخر الصيف، متعبين وسعيدين. جلسا في شقتهما الصغيرة ذات ليلةٍ هادئة، والخرائط مبعثرة على الطاولة، والصور التي التقطاها متناثرة على الأرض. قالت سلاف فجأة وهي تقلّب صورةً لهما أمام الأهرامات:

ـ في الشتاء... في يناير وفبراير... سآخذك إلى بلدي.

رفع أحمد رأسه ونظر إليها.

ـ إلى سوريا؟

ـ نعم. إلى دمشق وحلب وحمص واللاذقية وتدمر. أريدك أن ترى ما رأيته أنا هنا. أريدك أن تمشي في شوارع بلدي كما مشينا في شوارع مصر.

ابتسم أحمد ابتسامةً بطيئة، ومدّ يده وأمسك يدها.

ـ سأذهب معك. وأنا أحمل في قلبي كل ما رأيته هذا الصيف، وكل ما سمعته منك عن سوريا.

قرّرا أن يكون الشتاء القادم، شتاءُ ألفين وأحد عشر، رحلتهما الثانية. رحلةٌ من مصر إلى سوريا، من النيل إلى بردى، من الأهرامات إلى الأعمدة الرومانية، ومن ماضي الفراعنة إلى حاضرٍ كان لا يزال، في تلك اللحظة، يبدو هادئاً قبل العاصفة.

وفي تلك الليلة ناما متعانقين، والجسد الذي كان قد اكتشف الجسد في الربيع صار الآن يعرف الطريق جيداً. لم يكن الجسد وحده هو الذي يسافر؛ كانت الروح أيضاً تستعدّ لرحلةٍ جديدة.

وهكذا انتهى صيفُ ألفين وعشرة، وبدأ الانتظار لشتاءٍ آخر.

الفصل الثالث

من رواية «المصري الأخير»

في أواخر كانون الأول/ديسمبر من سنة ألفين وعشرة، بدأت سلاف تحزم الحقائب. لم تكن تحزم حقائبها وحدها؛ كانت تطوي قمصان أحمد بعناية، وتضع كتبه الصغيرة في زاوية الحقيبة الكبيرة، وتبتسم كلما وجدت صورةً لعبد الناصر بين أوراقه. كان الشتاء قد دخل القاهرة بهدوء، والهواء بارداً جافاً، والشقة في المهندسين تبدو فجأةً أصغر مما كانت عليه في الصيف.

في صباح الرحيل وقفا أمام المرآة معاً. أخرجت سلاف جواز سفرها السوري ووضعته بجانب جواز سفر أحمد المصري على الطاولة. جوازها يحمل شعار الصقر والنجمتين الخضراوين، وعلم سوريا ذو النجوم الذي يشبه علم مصر في ألوانه الثلاثة، وجوازه يحمل النسر المصري وعلم مصر. نظرت إلى الجوازين لحظةً طويلة ثم قالت بصوتٍ خافت:

ـ ها هما يجلسان جنباً إلى جنب... كأنّهما يعرفان منذ زمن أنهما سيلتقيان.

ابتسم أحمد ومدّ يده وأمسك الجوازين معاً.

ـ سيسافران معنا إلى دمشق.

أقلعت الطائرة من مطار القاهرة، وبعد أقل من ساعتين هبطت في مطار دمشق الدولي. خرجا إلى الهواء البارد، وسلاف تمسك يده بقوةٍ كأنّها تخاف أن يضيع منها في مدينتها هي. استقبلا سيارةً صغيرة وانطلقا نحو العاصمة.

دمشق كانت أول المحطات. مشيا في الشام القديمة ساعاتٍ طويلة: في سوق الحميدية، بين الأعمدة الرومانية في معبد جوبيتر، أمام الجامع الأموي حيث قبر صلاح الدين. وقفا أمام ضريح ابن عربي، وجلسا في مقهىً قديم يشربان الشاي بالنعناع. كانت سلاف تشرح له كل زاوية، وهو يستمع كأنّه يكتشف وطناً جديداً كان يحلم به دون أن يراه.

ثم سافرا إلى حلب. مشيا في أسواقها المسقوفة، وصعدا إلى القلعة الهائلة، وأكلا معاً الكبة النية والفتة الحلبية والبقلاوة الطازجة. كانت سلاف تقول له أسماء الأطباق بصبرٍ وحنان:

ـ هذه كبة نية... وهذا محشي كوسا... وهذه كنافة بالقطر... وذاك هريسة.

وكان أحمد يكرر الأسماء بلهجته المصرية فيضحكان معاً.

في حمص زارا الجامع الكبير وكنيسة أم الزنار، ومشيا على ضفاف العاصي. في اللاذقية جلسا على الكورنيش وأكلا السمك المشوي والفول المدمس على الطريقة السورية، وشاهدا البحر الأبيض المتوسط وهو يلمع تحت شمس الشتاء الخفيفة. في السويداء زارا المعابد الرومانية والمساكن القديمة المصنوعة من الحجر الأسود، وأحسّ أحمد أن شيئاً في تلك الجبال يشبه صعيد مصر في صلابته.

ثم ذهبا إلى تدمر. وقف أحمد أمام الأعمدة الطويلة والمسرح والمدافن البرجية وهو يكاد لا يصدق. قال لسلاف وهو يمسح الغبار عن يده:

ـ كأنّ الرومان والمصريين والسوريين بنوا كل هذا لشخصٍ واحد... لشخصٍ سيأتي بعد ألفي سنة ويحب امرأةً من هنا.

ابتسمت سلاف ولم تردّ، فقط اقتربت منه أكثر.

استمرا في الرحلة شرقاً وشمالاً: الحسكة والرقة ودير الزور. شاهد أحمد السدود على الفرات، والسواقي القديمة، والأراضي الزراعية الواسعة، والأنهار التي تشق الأرض كما يشق النيل أرض مصر. أكلا المنسف والكموني والمجبوس والكبة المقلية، وتذوقت سلاف معه الحلويات: المبرومة، والمعمول، والهلام، والغريبة. كانت تعلّمه الأسماء وهو يكتبها في دفترٍ صغير بخطه المرتب كعادة أبناء برج العذراء.

في كل مدينة كانا يضعان الجوازين معاً على طاولة الفندق قبل أن يناما. جوازها السوري بجانب جوازه المصري. الصقر بجانب النسر. النجمتان بجانب النسر المصري. كأنّ الوثيقتين كانتا تشهدان على قصةٍ أكبر من مجرد رحلةٍ سياحية.

مرّ كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير وبدايات آذار/مارس سنة ألفين وأحد عشر وهما يطوفان في سوريا كما طافا في مصر في الصيف السابق. كان الجو لا يزال هادئاً في الظاهر، والشوارع ممتلئة بالناس، والأسواق تضجّ بالحياة، وسلاف تمسك يد أحمد في كل مكان كأنّها تريد أن تقول للعالم: هذا الرجل مصري، وأنا أحبه، وهو يحب بلدي كما أحبّ بلده.

وفي إحدى الليالي في دمشق، بعد أن عادا من جولةٍ طويلة، جلسا على سرير الفندق الصغير والجوازان ما زالا موضوعين على الطاولة. نظرت سلاف إلى أحمد وقالت:

ـ الآن رأيت مصر ورأيت سوريا.

فأجابها وهو يضمّها إليه:

ـ ورأيتُكِ أنتِ في الاثنتين.

وخارج النافذة كانت دمشق تنام تحت سماءٍ شتويةٍ باردة، غير مدركةٍ أن شيئاً كبيراً كان على وشك أن يبدأ.

الفصل الرابع

من رواية «المصري الأخير»

كان المساء قد هبط على دمشق بهدوءٍ نسبي حين رنّ هاتف سلاف.

كانت جالسةً إلى جانب أحمد على شرفة غرفتهما الصغيرة في فندقٍ قديم قرب باب توما، والشاي ينبعث منه بخارٌ خفيف، والجوازان ما زالا موضوعين على الطاولة الداخلية كأنّهما حرّاس صامتان. رفعت سلاف الهاتف، ورأت اسم والدها، فابتسمت في البداية.

ـ أبي...

لكن صوت السفير لم يكن صوت الأب الذي اعتادت عليه. كان متوتراً، مكتوماً، يحاول أن يبدو هادئاً فلا يفلح. وفي الخلفية سمعت أصواتاً أخرى: صوت أمها المرتجف، وصوت أختها الشابة لمى وهي تهمس «رجّعي يا سلاف»، وصوت أخيها الشاب وهو يقول بصوتٍ أعلى مما ينبغي: «ماما... الآن».

قال الأب بصوتٍ واحدٍ قاطع:

ـ سلاف... اسمعي جيداً. عودي إلى مصر فوراً. أنتِ وأحمد. لا تؤجّلا يوماً واحداً.

نظرت سلاف إلى أحمد الذي كان يراقب وجهها وهو يتغيّر. وضعت الهاتف على مكبر الصوت دون أن تدري تماماً لماذا، فسمع أحمد كل شيء.

تابع الأب:

ـ ما يحدث ليس احتجاجاتٍ عابرة. هذه مؤامرة كبيرة تُحاك ضد سوريا كما حُاكت ضد تونس في كانون الأول، وضد مصر في كانون الثاني، وضد ليبيا في شباط. الأمور تتحرك بسرعة، والوضع هنا في القاهرة أصبح غير مطمئن بالنسبة لكم أنتم هناك. السفارة تتلقى تعليمات، والطرق قد تُغلق، والمطارات قد تتأثر. أريدكما هنا... في مصر... الليلة إن أمكن، أو غداً في أقصى تقدير.

بكت الأم فجأة، وصوتها وصل مبحوحاً:

ـ يا بنتي... رجّعي. أنا خايفة عليكي وعليه. سوريا مش زي ما كنتي تفتكري هالأيام.

وقالت لمى بصوتٍ مختنق:

ـ سلاف... رجّعي بالله عليكِ. كل الناس هون عم تحكي إنو في شي كبير راح يصير.

أما الأخ الشاب فقد كان أكثر حدة:

ـ مش وقت سياحة ولا حب. في مؤامرة واضحة زي اللي صارت عندنا وعند التونسيين والليبيين. ارجعوا الآن.

صمتت سلاف ثوانياً طويلة. كانت يدها ترتجف قليلاً وهي تمسك الهاتف. نظر إليها أحمد، ولم يتكلم. فقط مدّ يده ووضعها فوق يدها.

أخيراً قالت بصوتٍ هادئٍ لكنه مكسور:

ـ طيب يا أبي... سنعود.

أغلقت الخط. جلست صامتةً على الكرسي، والهاتف ما زال في حضنها. دمشق من حولها تبدو في تلك اللحظة عاديةً تماماً: سيارات تمر، وبائع متجول ينادي على شيءٍ ما، ونور النوافذ يضيء الشوارع القديمة. لكن شيئاً في الهواء كان قد تغيّر.

قال أحمد بصوتٍ منخفض:

ـ هل تريدين أن نبقى يوماً إضافياً؟

هزّت رأسها ببطء.

ـ لا. أبي لا يتكلم هكذا إلا إذا كان الأمر خطيراً. وهو يعرف أكثر منا.

وقفا معاً وبدءا بجمع أغراضهما. طوت سلاف الملابس بسرعةٍ غير معتادة، وأحمد جمع كتبه ودفتره الصغير الذي كتب فيه أسماء الأكلات السورية. قبل أن يغلقا الحقيبة الكبيرة، أخذت سلاف الجوازين من الطاولة ووضعتهما جنباً إلى جنب مرةً أخيرة: جوازها السوري ذو الصقر والنجمتين، وجوازه المصري ذو النسر. نظرت إليهما لحظةً ثم وضعتهما في جيبها الداخلي.

ـ سنعود معاً... كما جئنا معاً.

في الليلة نفسها حجزا مقعدين على أول طائرة متجهة إلى القاهرة في الصباح الباكر. لم يناما جيداً. كان أحمد يضمّها من الخلف وهي تحدّق في سقف الغرفة، وسوريا التي أحباها طوال شهرين ونصف تبدو فجأةً على حافة شيءٍ لا يعرفان اسمه بعد.

وفي الفجر، بينما كانت الطائرة تقلع من مطار دمشق، أمسكت سلاف يد أحمد بقوةٍ لم يسبق لها مثيل. نظرت من النافذة إلى المدينة وهي تصغر تحتها، وهمست:

ـ كنا نظن أننا ننهي رحلة... فإذا نحن نبدأ رحلةً أخرى لا نعرف إلى أين ستمضي.

ضغط أحمد على يدها ولم يردّ. فقط ظلّ يمسكها حتى اختفت دمشق تماماً خلف السحب.

الفصل الخامس

من رواية «المصري الأخير»

عادت الطائرة إلى مطار القاهرة في صباحٍ رماديٍّ من أوائل آذار/مارس سنة ألفين وأحد عشر. هبط أحمد وسلاف على أرضٍ كانت لا تزال تهتزّ تحت أقدام الجميع. مصر التي تركاها قبل شهرين ونصف لم تعد هي نفسها تماماً.

في الأيام الأولى بعد عودتهما، جلسا في شقة المهندسين يتابعان الأخبار كأنّهما يحاولان أن يفهموا ما فاتهما. كان المجلس العسكري قد تولّى الحكم منذ الحادي عشر من شباط/فبراير، بعد أن تخلى مبارك عن السلطة. وفي البداية، خلال تلك الأسابيع الممتدة من الخامس والعشرين من كانون الثاني/يناير إلى يوم التنحي، كان أحمد وسلاف قد فرحا فرحاً حقيقياً، حتى وهما بعيدان في سوريا. كانا يتابعان الصور والأخبار من غرف الفنادق، ويتهامسان في الليالي:

ـ ربما تعود مصر ناصرةً من جديد...

ـ ربما تعود الدولة إلى تعيين الخريجين...

ـ ربما يعود شيءٌ من اشتراكية ناصر التي يحلم بها أحمد منذ صباه.

كان أحمد يردد وهو يمسك يد سلاف:

ـ لو سقط النظام القديم، فربما يفتح الطريق أمام مشروعٍ قوميٍّ اشتراكيٍّ جديد. مصر تستحق ذلك.

وسلاف كانت توافقه، لأنّها كانت تحب فيه هذا الحلم، ولأنّها كانت ترى في ناصر شيئاً يشبه ما كانت تؤمن به عن سوريا الأسد: دولةٌ قوية، مركزية، تحمي الفقراء وترفض التبعية.

لكن الفرح لم يدم.

بعد عودتهما بأيام قليلة، بدأت الصورة تتضح أمامهما شيئاً فشيئاً. لم تكن مصر تسير نحو الناصرية ولا نحو أي شكلٍ من أشكال الاشتراكية التي كانا يحلمان بها. بل كان المجلس العسكري، في نظر أحمد، يسلّم البلاد تدريجياً وبهدوءٍ إلى الإخوان المسلمين والسلفيين. كانت اللافتات الخضراء تنتشر، والدعاة يرفعون أصواتهم في الميادين، والحديث عن «تطبيق الشريعة» و«الدولة الإسلامية» يعلو فوق كل حديثٍ آخر.

جلس أحمد ذات مساءٍ أمام التلفاز، وسلاف إلى جانبه، وهو يحدّق في الشاشة بعينين غاضبتين حزينتين. قال بصوتٍ منخفضٍ كأنّه يتحدث إلى نفسه:

ـ كانوا يقولون إنّ الثورة ضد الاستبداد... فإذا بها تُسلَّم إلى من يريدون تحويل مصر إلى دولةٍ ثيوقراطية دينية.

رفع رأسه ونظر إلى سلاف:

ـ مثل الصومال... مثل أفغانستان... أو مثل السعودية وقطر... أو مثل تركيا أردوغان التي يلبسونها ثوب الديمقراطية وهي تمضي نحو نسخةٍ ناعمة من الحكم الديني.

شعرت سلاف بضيقٍ في صدرها. كانت قد جاءت من سوريا وهي تحمل في قلبها صورةً عن دولةٍ علويّةٍ اشتراكيةٍ مركزية، قويةٍ في مواجهة الفوضى، فإذا هي تجد مصر التي أحبّت فيها أحمد تُدفع نحو اتجاهٍ معاكس تماماً لما كانا يحلمان به.

قالت وهي تضع رأسها على كتفه:

ـ كنتُ أظن أنّ سقوط مبارك سيعيد شيئاً من عبد الناصر الذي تحبه...

فأجابها أحمد بصوتٍ مبحوح:

ـ وأنا أيضاً. ظننت أنّ الدولة ستعود لتكون دولةً للخريجين والفقراء والمصانع والمدارس... لا دولةً للمشيخات والدعاة والحسبة.

صمت قليلاً ثم أضاف:

ـ كأنّهم يسلّمون مصر لتصبح نسخةً فاشلةً من دولٍ دينيةٍ أخرى. وأنا لا أريد لمصر أن تكون كذلك.

في الليالي التالية كانا يتجولان في شوارع القاهرة فيجدان الوجوه متوترة، والنقاشات حادة، والانقسام يتسع. أحمد الذي كان يحلم بوحدةٍ عربيةٍ اشتراكية يجد نفسه فجأةً غريباً في مدينته. وسلاف التي جاءت معه من دمشق وهي تؤمن بشيءٍ مشابه، تجد أنّ الحلم الذي جمعهما بدأ يتصدع تحت ضغط الواقع الجديد.

وفي إحدى الليالي، بعد أن أغلقا التلفاز، جلسا صامتين على السرير. أمسكت سلاف يد أحمد وقالت:

ـ هل ما زلت تؤمن أنّ شيئاً جميلاً يمكن أن يُولد من كل هذا؟

نظر إليها أحمد طويلاً ثم أجاب بصوتٍ هادئٍ حزين:

ـ أؤمن بكِ... وأؤمن بما كنّا عليه في الصيف والشتاء. أما مصر التي كنت أحلم بها... فأشعر أنّها تبتعد أكثر فأكثر.

وضمّها إليه، والجوازان السوري والمصري ما زالا في درج الطاولة، كأنّهما يشهدان على زمنٍ كان فيه الحلم لا يزال ممكناً، قبل أن تتحوّل الميادين إلى ساحةٍ لصراعٍ آخر تماماً.

الفصل السادس

من رواية «المصري الأخير»

مرّت بقية أشهر سنة ألفين وأحد عشر ثقيلةً كالرصاص على أحمد وسلاف.

كانا يجلسان كل مساء أمام الشاشة الصغيرة في شقة المهندسين، يتابعان الأخبار كأنّهما يشاهدان جنازاتٍ متتالية لأوطانٍ كانا يحبّانها.

في ليبيا سقط القذافي.

رأيا الصور مراراً: الرجل الذي كان يرفع شعارات الوحدة والاشتراكية والرفض للغرب يُسحب من أنبوب صرفٍ في سرت، ثم يُقتل على أيدي مجموعاتٍ ملتحيةٍ ترفع راياتٍ سوداء وخضراء. كانوا يصرخون «الله أكبر» وهم يطعنونه ويطلقون النار عليه. قال المذيعون إنّهم «ثوار»، لكن أحمد كان يرى فيهم وجوه الإخوان والسلفيين وعناصر القاعدة وطالبان القادمين من كل مكان. تذكّر أحمد خطب يوسف القرضاوي التي كانت تبثّها قناة الجزيرة مراراً، وهو يهدر دم القذافي ودم بشار الأسد ودم الجيشين الليبي والسوري، ويحرّض على القتل باسم الدين. ورأى الدعم التركي والسعودي والقطري يتدفّق علناً، والسلاح يدخل، والطائرات الأطلسية تقصف.

جلس أحمد تلك الليلة صامتاً طويلاً، ثم قال بصوتٍ مبحوح:

ـ هذا ليس ربيعاً... هذا خريفٌ أسود يُصنع في غرف مغلقة.

سلاف كانت تجلس إلى جانبه، عيناها ممتلئتين بالحزن:

ـ كانوا يقولون ثورات شعوب... فإذا هي حملةٌ واحدة على الجمهوريات التي رفضت أن تكون توابع. سوريا، ليبيا، مصر... كلّها تُستهدف بالطريقة نفسها.

ومع مرور الأسابيع صار الأمر أوضح أمامهما. ما سُمّي «الربيع العربي» لم يكن في نظرهما سوى مشروعٍ أمريكي خليجي تركي أطلسي، مُصمَّم لتخريب الجمهوريات العلمانية والاشتراكية في المنطقة. تونس أُخرجتْ من معادلتها القديمة، ومصر تُدفع نحو المجهول، وليبيا تُحوَّل إلى أرضٍ للفوضى والسلاح، وسوريا تُحاصَر بالمسلحين والدعاية.

وفي مصر نفسها كان التغوّل يزداد.

الإخوان والسلفيون يكتسحون النقابات، ثم البرلمان، ثم يسيطرون على مفاصل الحكومة بمساعدةٍ واضحة من المجلس العسكري. الأسماء تتكرر كل يوم: محمد مرسي، حازم صلاح أبو إسماعيل، وآخرون يرفعون شعارات الدين والدولة الإسلامية. وحتى من كانوا يُقدَّمون على أنّهم «علمانيون» أو «ناصريون» مثل حمدين صباحي، كانوا في نظر أحمد منبطحين أمام الموجة الإسلامية، ي circumون ويتراجعون ولا يجرؤون على مواجهة التيار الذي يكتسح الشارع.

كان أحمد يضرب كفّه على الطاولة أحياناً ويقول:

ـ هؤلاء سيسلّمون مصر كما سُلّمت أفغانستان والصومال... دولة ثيوقراطية فاشلة، تحكمها اللحى والدعاة، وتُغلق فيها المصانع والمدارس باسم الدين.

وسلاف تردّ بصوتٍ حزين:

ـ وأنا أرى سوريا تُذبح بالطريقة نفسها. الجيش الذي كان يحمي الدولة يُحارب الآن من قبل الجماعات نفسها التي قتلت القذافي. والجزيرة تركّز كاميراتها، وتركيا تفتح الحدود، والخليج يموّل.

الحزن كان كبيراً جداً.

حزنٌ على مصر التي كانا يحلمان أن تعود ناصريةً اشتراكية بعد سقوط مبارك، فإذا هي تنزلق نحو حكمٍ دينيٍّ يكره كل ما يحبّانه. وحزنٌ على سوريا التي طافا في مدنها ومعابدها وسدودها قبل أشهر قليلة، فإذا الشوارع التي مشيا فيها تتحوّل إلى ساحات قتال. وحزنٌ على ليبيا التي لم يزوراها، لكنّهما كانا يريان فيها جمهوريةً أخرى تُدمَّر أمام أعينهما.

في ليالي الخريف والشتاء الأول من تلك السنة، كانا ينامان متعانقين في صمتٍ ثقيل. أحياناً كانت سلاف تبكي بهدوء على صدره، وأحمد يمسح شعرها ويقول:

ـ نحن نعيش نهاية شيءٍ كبير... نهاية الجمهوريات التي حاولت أن تكون حرّة ومستقلة.

فتردّ هي بصوتٍ مكسور:

ـ ونحن الباقيان... المصري الأخير والسورية التي أحبّته، نشهد على الخراب.

خارج الشقة كانت القاهرة تغلي بالاستقطابات والمظاهرات واللافتات الخضراء والسوداء. وداخلها كان رجلٌ من برج العذراء وامرأةٌ من برج الجوزاء يحاولان أن يحفظا شيئاً من الحلم الذي جمعهما في صيف مصر وشتاء سوريا، قبل أن يبتلع «الربيع» كل شيء.

الفصل السابع

من رواية «المصري الأخير»

كان الحزن يثقل على أحمد كحجرٍ كبير في صدره.

يمرّ اليوم بطيئاً، والأخبار أسوأ من سابقتها، والليل أطول مما يحتمل. سلاف كانت ترى ذلك في عينيه كل صباح، وفي صمته الطويل أمام الشاشة، وفي الطريقة التي كان يمسك بها فنجان الشاي دون أن يشربه. كانت هي أيضاً مثقلةً بالهمّ نفسه: مصر تنزلق، وسوريا تُحاصر، وليبيا سقطت، والحلم الذي جمعهما يبدو أبعد من أي وقت مضى.

لكن سلاف لم تكن من النوع الذي يستسلم للصمت والحزن إلى ما لا نهاية.

في أحد الأمسِية، بينما كان أحمد جالساً على كنبة الصالة يحدّق في الفراغ، جلست إلى جانبه وأمسكت يده بقوة.

ـ أحمد... لازم نزور أهلك.

رفع رأسه ببطء كأنّه يخرج من بئرٍ عميق.

ـ مش قادر الآن يا سلاف... مش عايز أقابل حد وأنا بهالوجه.

فقالت بصوتٍ حازمٍ لكنّه حنوناً:

ـ وأنا كمان مش قادرة. بس لازم. أهلك قلقانين، وأهلي قلقانين أكتر. أبوي بيتصل كل يوم تقريباً، وأمي بتسأل عنّك، ولمى وأخوي بيسألوا ليه ما بنظهرش. الفوضى برّه كبيرة، والاضطرابات جوه أكبر. لازم نطمْنهم ونطمْن نفسنا كمان.

حاول أحمد أن يرفض مرةً أخرى، لكن سلاف لم تترك له مجالاً. قامت وفتحت الدولاب وأخرجت ملابس نظيفة له، ثم وقفت أمامه وقالت:

ـ هتقوم دلوقتي. هنتغسّل ونتغيّر ونروح. أولاً لأهلك، وبعدين لأهلي. مش هقبل إنك تفضل محبوس هنا مع الأحزان بس.

ابتسم أحمد ابتسامةً باهتةً لأوّل مرة منذ أيام، وقام من مكانه.

ـ إنتِ بتجبريني يا بنت الجوزاء...

ـ أيوه بجبرك. لأنّي بحبّك، ولأنّنا محتاجين نتخفّف شوية من الحمل ده.

ذهبا أولاً إلى بيت والدي أحمد في حيٍّ شعبيٍّ هادئ على أطراف القاهرة. استقبلهما الأب والأم بحرارةٍ مشوبة بالقلق. الأم احتضنت سلاف طويلاً كأنّها ابنتها، والأب صافح أحمد بقوةٍ وهو ينظر في عينيه بحثاً عن شيءٍ من الطمأنينة. جلسوا حول مائدةٍ بسيطة، وتحدثوا عن الغلاء والأخبار والمخاوف. لم يذكر أحمد كثيراً من آرائه السياسية الحادّة أمام والديه، لكنّهما شعرا بحزنه، وحاولا أن يخفّفا عنه بالكلام عن الذكريات القديمة وعن أيامٍ كانت فيها مصر أكثر هدوءاً.

بعد ساعاتٍ غادرا البيت، وسلاف تمسك يده في السيارة وتقول:

ـ شفت؟ أحسن شوية. دلوقتي دور أهلي.

في منزل السفير السوري كان الجوّ أكثر توتراً. استقبلهم الوالد بوجهٍ متعب، والوالدة بعيونٍ حمراء من الأرق، ولمى أخفت دموعها بابتسامة، والأخ الشاب كان يحاول أن يبدو قوياً فلا يفلح تماماً. جلسوا في الصالة الفسيحة، والصور العائلية على الجدران تذكّرهم بزمنٍ كان فيه كل شيءٍ أكثر استقراراً.

بعد السلام والحديث السريع عن الصحة، نظر السفير إلى ابنته وصهرها المستقبلي وقال بصوتٍ هادئٍ وثقيل:

ـ الوضع في سوريا يتدهور بسرعة. الجماعات المسلّحة تدخل من الشمال، والحدود مع تركيا أصبحت مفتوحة تقريباً للسلاح والعناصر. الدعاية الخارجية شرسة، والجزيرة لا تتوقف. هناك محاولة واضحة لتمزيق الجيش والدولة كما حدث في ليبيا. نحن هنا في السفارة نتابع ساعةً بساعة، والرسائل التي تصلنا من دمشق... ليست مطمئنة.

صمت الجميع لحظة. سلاف شعرت ببرودةٍ تسري في يديها، وأحمد عضّ على شفته السفلى.

سألت سلاف بصوتٍ منخفض:

ـ هل هناك أمل أن يستوعب الجيش الوضع؟

فأجاب الأب وهو ينظر إلى الأفق البعيد من النافذة:

ـ الجيش قوي، والدولة لا تزال واقفة. لكن المعركة طويلة، والخصوم كثر: المال الخليجي، السلاح التركي، التغطية الإعلامية، والدعم الأطلسي غير المعلن. أنتما هنا في مصر... راقبا حالكما. مصر نفسها ليست بخير.

الوالدة تدخلت بصوتٍ مرتجف:

ـ بس المهم إنكم بخير. زورونا أكتر. لا تنعزلوا. الفوضى برّه كبيرة، وإذا ما سندنا بعض هنضيع.

لمى اقتربت من سلاف وأمسكت يدها، والأخ صافح أحمد بحرارةٍ هذه المرة وقال:

ـ إحنا معكم. أي حاجة تحتاجونها قولوا.

غادر أحمد وسلاف المنزل في ساعةٍ متأخرة من الليل. في السيارة كان الصمت مريحاً هذه المرة، لا خانقاً. قال أحمد وهو يقود بهدوء:

ـ شكراً إنك أجبرتني.

فردّت سلاف وهي تضع رأسها على كتفه:

ـ أحياناً لازم نجبر بعض على الحياة... حتى ونحن محاطون بالموت والتخريب.

وعادا إلى شقتهما، والحزن لم يختفِ تماماً، لكنّه صار أخفّ قليلاً، كأنّ زيارة الأهل فتحت نافذةً صغيرة في جدارٍ كان يوشك أن يطبق عليهما.

الفصل الثامن

من رواية «المصري الأخير»

بحلول منتصف سنة ألفين واثني عشر، بدأ شيءٌ غريب يحدث داخل أحمد وسلاف.

لم يختفِ الحزن، ولم تتبدّد المرارة، لكنّهما تعلّما كيف يعيشان معه. صارا يتطبّعان نفسياً مع الوضع الصادم الذي أطبق على بلديهما. مصر كانت تتعمّق في قبضة الإخوان والسلفيين يوماً بعد يوم، وسوريا تشتعل أكثر فأكثر، وليبيا التي سقط فيها القذافي صارت تحت حكم المجموعات الملتحية نفسها التي كانت ترفع راياتٍ سوداء وخضراء فوق أنقاض الجمهورية. الأخبار لم تعد تصعقهم كما كانت في البداية؛ صارت جزءاً من الإيقاع اليومي، مثل صوت السيارات في الشارع أو أذان المغرب.

ومع ذلك التطبّع جاء شيءٌ آخر.

الشراهة.

لم تنخفض شراهتهما الجنسية والعاطفية لبعضهما؛ بل ازدادت. ازدادت كما تزداد شهية المكتئب فجأةً للطعام الحلو أو المالح، كأنّ الجسد يبحث عن أيّ شيءٍ يملأ الفراغ الذي تركه الخراب في الروح. كان أحمد يعود من عمله أو من تجواله في المدينة المحبطة فيجد سلاف تنتظره نظرةً مختلفة: نظرةً جائعة، مباشرة، بلا مقدمات طويلة. وكانت هي تشعر بالشيء نفسه كلما لمسها أو مرّ من خلفها أو حتى نظر إليها من عبر الغرفة.

في الليالي كانوا يندفعان نحو بعضهما كأنّهما يحاولان أن يختبئا داخل الجسد الآخر. لم يعد الأمر هادئاً أو بطيئاً كما كان في ربيع سنتهما الأولى. صار أكثر إلحاحاً، أكثر حرقاً، أكثر حاجة. أحمد كان يمسكها بقوةٍ أكبر، وسلاف كانت تشدّه إليها كأنّها تخاف أن يفلت منها مع انهيار كل شيءٍ حولهما. في السرير كانا يبحثان عن اليقينين في العرق واللمس والأنفاس المتلاحقة، وكان الجسد يردّ على الحزن بالطريقة الوحيدة التي يعرفها: المزيد من الاقتراب، المزيد من الامتلاء، المزيد من النسيان المؤقت.

أحياناً بعد أن يهدآ، كانت سلاف تضع رأسها على صدره وتهمس:

ـ كأنّنا كل ما ضاع منّا برّه... بنعوّضه هنا.

فيردّ أحمد وهو يمرّر أصابعه في شعرها:

ـ المكتئب بياكل أكتر... وإحنا بنحب بعض أكتر. نفس الحاجة.

وفي الصباحات كانوا يستيقظون متعبين ولذيذين في الوقت نفسه. ينظر أحدهما إلى الآخر فيجد في العينين الاعتراف الصامت: نعم، العالم ينهار، لكنّنا ما زلنا نشتهي بعضنا بهذا الشره الذي لا يهدأ. كأنّ الرغبة صارت آخر منطقةٍ لم يصل إليها الخراب بعد، فتشبّثا بها بقوة.

حتى في الأيام التي كانت فيها الأخبار أسوأ من المعتاد ـــ مجزرة هنا، سقوط مدينة هناك، خطابٌ دينيٌّ متشدد في القاهرة، صورةٌ جديدة لدمارٍ في حمص أو حلب ـــ كانا ينتهيان في المساء إلى السرير نفسه، إلى الأجساد نفسها، إلى الشراهة نفسها. لم يكونا يهربان من الواقع تماماً؛ كانا يقاومانه بالطريقة الوحيدة التي بقيت لهما: أن يحبّا بعضهما بجسدٍ مفتوحٍ وقلبٍ جريح، وأن يتركا الرغبة تزداد كلما ازداد اليأس من حولهما.

وهكذا، في منتصف سنة ألفين واثني عشر، بينما كانت مصر وسوريا وليبيا تتعمّق في ليلها السياسي الطويل، كان أحمد وسلاف يتعمّقان في ليلٍ آخر خاصّ بهما: ليلٌ مليء باللمس والأنين والاحتضان الشديد، ليلٌ يشبه شهية المكتئب حين يكتشف فجأةً أنّ الطعام ما زال قادراً على أن يجعله يشعر، ولو للحظات، أنّه ما زال حيّاً.

الفصل التاسع

من رواية «المصري الأخير»

كان أحمد، منذ ما قبل أن يلتقي سلاف، رجلاً فضولياً في أمور الجنس.

يقرأ القصص الإباحية بهدوء المساء، ويتابع الأفلام والصور على الشاشة الصغيرة في غرفته القديمة، ويتصفّح المواقع المتخصصة ساعاتٍ طويلة دون أن يشعر بالوقت. كان يعرف أسماء الممثلات والممثلين، ويعرف التصنيفات، ويعرف الفرق بين الإيلاج البطيء والعنيف، وبين اللقطات القريبة والبعيدة. لم يكن ذلك السرّ الوحيد في حياته، لكنه كان جزءاً صامتاً منها، جزءاً لم يخبر به أحداً قبلها.

ثم جاءت سلاف.

لم ترفض شيئاً منه. بل احتضنت كلّ صفاته كما يحتضن الإنسان مكاناً دافئاً في ليلةٍ باردة. كانت تعشقه جداً، وتعشق فضوله، وتعشق الطريقة التي كان يتحدث بها عن الرغبة كأنّها معرفةٌ أخرى من معارف الدنيا. ولأنّها من برج الجوزاء، سريعة التعلّم، متعددة الاهتمامات، فقد اكتشفت بعد فضّ بكارتها أنّها هي أيضاً شرهة وفضولية. لم تكن تعرف ذلك عن نفسها بوضوح قبل أحمد؛ كانت الرغبة نائمةً أو مكتومة، فلما انفتحت انفتحت على اتساعها.

بدءا يقرآن معاً.

يجلسان على السرير أو على الأرض، والحاسوب مفتوح أمامهما، ويتصفّحان القصص على «Literotica» و«ASSTR» وغيرهما. كانت سلاف تقرأ بصوتٍ عالٍ أحياناً، وأحمد يصحّح لها بعض التعابير الإنجليزية أو يشرح لها مشهداً. ثم ينتقلان إلى الأفلام. يتابعان معاً لقطات السحاق واللواط والبيسكشوال، والإيلاج المزدوج، ووضعيات الراعية وال<object> والتبشيري والجنب لجنب والكلبي، ومشاهد الـGangbang والـGangbang المعكوس، والأورجي، ولحس الكس ومص الزب وتدليك الزب. كانت تتعلّم الأسماء والمصطلحات بسرعة، وتسأل عن التفاصيل بدقّة الجوزاء، وأحمد يجيب بصبر العذراء المنظّم.

وصارا يدخلان موقع «IAFD» يبحثان عن أسماء النجمات والنجوم، ويتابعان أعراقهم وأجسادهم وأعمالهم السابقة. كانت سلاف تشير بأصبعها إلى شاشةٍ وتقول:

ـ هذه أحب شكلها...

أو:

ـ هذا المشهد عنيف زيادة... جرّب نلاقي نسخة أهدأ.

وأحياناً كانت تقول ببساطة:

ـ عايزة نجرّب حاجة زي دي.

ولم يكن التجريب نظرياً فقط.

في السرير كانا يطبّقان ما رأياه وما قرآه، بهدوءٍ أحياناً وبشراهةٍ أحياناً أخرى. كان الجسد الذي اكتشف الجسد في ربيع سنتهما الأولى صار الآن أكثر معرفةً وجرأةً وفضولاً. سلاف التي جاءت عذراء صارت تطلب، وتوجّه، وتبتسم حين ينجحان في وضعيةٍ جديدة أو في إيقاعٍ مختلف. وأحمد الذي كان يظن أنّ فضوله ملكه وحده اكتشف أنّه صار مشتركاً، بل مضاعفاً.

في ليالي منتصف سنة ألفين واثني عشر، بينما كانت مصر وسوريا وليبيا تغرق أكثر في ليلها السياسي، كانا هما يغرقان في ليلٍ آخر: ليل الشاشة الزرقاء والقصص المفتوحة والأجساد المتعانقة. بعد أن ينتهيا من المشاهدة أو القراءة، كانا ينتقلان إلى بعضهما بسرعة الجائع، كأنّ الصور والكلمات لم تكن كافية، وكأنّ الجسد الحقيقي هو وحده القادر على إغلاق الدائرة.

أحياناً بعد أن يهدآ، كانت سلاف تضحك بصوتٍ منخفض وتقول:

ـ أنا ما كنتش أعرف إنّي كده...

فيردّ أحمد وهو يقبل جبهتها:

ـ وأنا ما كنتش أعرف إنّ حد هيحب الفضول ده فيّا كلّه.

وهكذا صارت الرغبة عندهما أوسع وأعمق وأكثر تنوعاً. لم تعد مجرد تعويضٍ عن الحزن، بل صارت عالماً موازياً يبنيانه معاً، عالماً فيه سحاق ولواط وبيسكشوال وإيلاج مزدوج ووضعيات كثيرة ولحس ومص وتدليك ونجوم ونجمات ومواقع لا تنتهي. عالماً يفتحانه كل ليلة من جديد، ثم يغلقانه على جسديهما قبل أن يناما، بينما الخارج يزداد ظلمةً يوماً بعد يوم.

الفصل العاشر

من رواية «المصري الأخير»

كان أحمد وسلاف يتشاركان أكثر من الجسد والسرير والشراهة.

كانا يتشاركان الإيمان نفسه، أو ما يشبه الإيمان، أو ما هو أبعد من الإيمان التقليدي altogether.

يؤمنان بالعلمانية بلا تردد: الدولة يجب أن تكون محايدة تجاه الأديان، لا تفضّل ديناً على آخر، ولا تسمح لرجال الدين أن يحكموا أو يشرّعوا أو يتدخّلوا في حياة الناس الخاصة. ويؤمنان بالاشتراكية كما كان يؤمن بها ناصر وكما كانا يريانها في سوريا الأسد قبل العاصفة: دولة قوية، تدخلية، تحمي الفقراء، وتعيّن الخريجين، وترفض أن يترك السوق المتوحّش الضعفاء يموتون على الأرصفة.

أما عن الإله... فكان موقفهما مختلفاً تماماً عن محيطهما.

لم يكونا ملحدين بالمعنى الصارم، ولا مؤمنين بأيٍّ من الديانات الإبراهيمية. كانا أقرب إلى ما يمكن تسميته «الربوبية التعددية». يؤمنان أنّ للكون صنّاعاً متعددين، رجالاً ونساء، آلهةً وآلهات، أقرب إلى آلهة الرومان واليونان القدماء، أو إلى آلهة مصر القديمة: رع وأوزوريس وإيزيس وحورس ونوت وجب. قوى كبيرة، متصارعة أحياناً، متعاونة أحياناً، لا تطالب البشر بالصلاة اليومية ولا بالقتل باسمها ولا بالطاعة العمياء. آلهة تخلق ثم تترك العالم يسير، أو تتدخل أحياناً على مهل، دون أن ترسل أنبياء أو كتباً مقدسة أو وعيداً أبدياً بالنار.

لهذا كانا أقرب إلى الأدينية منهما إلى أيّ دينٍ منظم. يرفضان فكرة الإله الواحد الغيور الذي يأمر بالقتل والطاعة ويعدّد المحرّمات على الأجساد والعقول. كانا يريان في الديانات الإبراهيمية الثلاث مصدراً تاريخياً للاستبداد والتعصب والتقسيم.

ومن هذا الموقف انبثقت كل مواقفهما الأخرى.

كانا ضد الإخوانية والسلفية بلا هوادة. يريان فيهما مشروعاً ظلامياً يريد إعادة مصر وسوريا وكل المنطقة إلى قرونٍ وسطى جديدة. وكانا ضد الخمينية بنفس القوة؛ فولاية الفقيه في نظرهما ليست إلا نسخة شيعية من الحكم الديني الذي يكرهانه. وكانا ضد آل سعود وآل ثاني وأردوغان؛ يريان في السعودية وقطر وتركيا أطرافاً رئيسية في تمويل وتسليح وتلميع الجماعات التي دمّرت ليبيا وتحاول تدمير سوريا وتدفع مصر نحو الهاوية.

وكانا ضد الليبرالية التي تدعم الإسلاميين تحت شعارات «الديمقراطية» و«حقوق الإنسان». يرفضان الرأسمالية المتوحشة التي يمثلها في نظرهما أوباما وهيلاري كلينتون وبايدن وهولاند وترودو وميركل وآخرون؛ يرون فيها الوجه الآخر للعملة نفسها: وجهٌ يتحدث عن الحرية بينما يموّل الفوضى ويحمي أنظمة الخليج ويترك الشعوب تدفع الثمن.

وكانا ضد التبشير المسيحي بأنواعه، خاصة ذلك الذي يمارسونه أشخاص مثل الأخ رشيد وماجي خزام؛ يريان فيه محاولة أخرى لاستغلال ضعف المنطقة وتحويلها إلى ساحة صراعٍ دينيٍّ جديد. وكانا ضد الحاخامات والصهيونية؛ يرفضان المشروع الاستيطاني والديني الذي يقوم على فكرة الشعب المختار والاستيلاء على الأرض باسم وعدٍ إلهي قديم.

في ليالي منتصف سنة ألفين واثني عشر، بعد أن ينتهيا من الجسد والشراهة، كانا يجلسان أحياناً يتحدثان في هذه الأمور بهدوء. أحمد يقول:

ـ أنا مش محتاج إله واحد يهددني بالنار عشان أكون كويس.

وسلاف تردّ وهي تمرّر أصابعها على صدره:

ـ وأنا كمان. لو في آلهة... يبقى زي بتوع مصر القديمة أو اليونان. يخلقوا ويسيبونا نعيش.

كانا يعرفان أنّ موقفهما هذا يجعلهما غريبين في زمنٍ يزداد فيه الصخب الديني من كل الجهات. لكنّهما كانا يجدان فيه راحةً غريبة. راحة من يعرف أنهما ليسا وحدهما في الرفض، حتى لو كان الرفض صامتاً ومحدوداً بغرفةٍ صغيرة في المهندسين.

وخارج الغرفة كانت مصر تتعمّق في تجربة الإخوان، وسوريا تنزف، وليبيا تتحول إلى مليشيات، والعالم يتحدث عن «الربيع» بينما هما يريان خريفاً طويلاً أسود. أما هما، داخل الغرفة، فكانا يتمسكان بعلمانيتهما واشتراكيتهما وربوبيتهما التعددية وفضولهما الجسدي، كأنّ هذه الأشياء الأربعة هي آخر ما تبقّى لهما من عالمٍ كان يمكن أن يكون أجمل.

الفصل الحادي عشر

من رواية «المصري الأخير»

كان أحمد وسلاف يرفضان بشدّة، ويشمئزان حتى من مجرد الذكر، أيَّ ملحدٍ أو علمانيٍّ أو ليبراليٍّ عربيٍّ يدعم الإخوان أو السلفيين أو ما سُمّي «ثوار الربيع العربي» من الإسلاميين المسلّحين. كانوا يرون في هؤلاء تناقضاً مقيتاً: يتحدثون عن العقل والتنوير ثم يقفون في صفّ من يريدون إعادة المنطقة إلى حكم اللحى والدعاة والمشايخ. وكانا يشمئزان أكثر ممن يدعم أردوغان أو آل سعود أو آل ثاني تحت أيّ ذريعةٍ كانت، سواءً «الديمقراطية» أو «مقاومة الاستبداد» أو «حقوق الإنسان». في نظرهما كان الدعم لهؤلاء خيانةً مزدوجة: خيانة للعلمانية وخيانة للاشتراكية وخيانة لأيّ أملٍ في جمهورياتٍ مستقلة.

في وسط هذا الرفض والاشمئزاز كان هناك كائنٌ صغير يمنحهما لحظاتٍ من الدفء اليومي: قطٌّ سياميٌّ جميل تقليدي، رشيق، بعينين زرقاوين واضحتين، اسمه أبوللو شوجركين. كان في الأصل قطّ سلاف. أحضرته معها حين انتقلت للعيش مع أحمد، وعرّفته عليه منذ الليلة الأولى. تقبّل أحمد القطّ بسرعة، وصار أبوللو يتجوّل في الشقة كأنّه المالك الثالث، ينام على حضن أحدهما أو كليهما، ويجلس على حافة الحاسوب بينما هما يتصفّحان الأخبار أو المواقع، ويموء بصوتٍ خفيف كلما اشتدّ النقاش السياسي بينهما. كان أبوللو التفصيلة الوحيدة الناعمة في أيامٍ خشنة.

وفي تلك الفترة نفسها، مع استمرار الكآبة والظلام الذي أطبق على مصر وسوريا وليبيا، قرّر والدا سلاف أن يتدخّلا.

كان والدها السفير من أسرة علوية ثرية جداً، قادرة على تحقيق ما يعجز عنه معظم الناس. استدعيا ابنتهما وأحمد إلى المنزل في مساءٍ هادئ، وجلسا معهما في الصالة الفسيحة. بعد حديثٍ قصير عن الأحوال، قال الوالد بصوتٍ هادئٍ وحاسم:

ـ أنتما تغرقان في الحزن. نراه في عيونكما، ونسمعه في صمتكما. هذا الزمن أسود، ونحن لا نستطيع أن نغيّر مجراه الآن... لكننا نستطيع أن نخرجكما منه لفترة.

ثم نظر إلى زوجته فابتسمت وأكملت:

ـ عندنا حلم قديم لكما. حلم كنتما تتحدثان عنه أحياناً في الزيارات الأولى. نريد أن نحققه لكما الآن.

شرح الوالدان العرض بالتفصيل: سفينة تقلّهما من أحد سواحل مصر، تطوف بهما سواحل أوروبا كلّها، ثم سواحل الجزائر والمغرب. بعد ذلك يسافران بالطائرة إلى الولايات المتحدة، فيطوفان ولايةً ولاية، يتمتّعان بجمالها ومعالمها. ومنها إلى كندا والمكسيك والبرازيل والأرجنتين. ثم أستراليا، وروسيا، والصين، والهند، واليابان. رحلة طويلة، مفتوحة، بلا عجلة، تموّلها الأسرة بالكامل، وتُرتَّب لها كل التفاصيل.

صمت أحمد وسلاف طويلاً.

سلاف كانت تمسك يد أحمد تحت الطاولة، وأبوللو الذي أحضراه معهما كان نائماً على طرف السجادة. رفع أحمد عينيه أخيراً وقال بصوتٍ منخفض:

ـ هذا كرمٌ كبير... أكبر مما نستحق ربما.

فردّ السفير:

ـ أنتما تستحقان أن تتنفّسا. مصر الآن خانقة، وسوريا تشتعل، والعالم العربي يتحوّل إلى ساحةٍ للمشاريع الدينية والرأسمالية التي تكرهانها. اذهبا. سافرا. ارجعا حين تستطيعان أن تحملا المشهد من جديد.

سلاف نظرت إلى أحمد، فرأت في عينيه الحزن نفسه الذي تعرفه، لكنّها رأت أيضاً شيئاً من الفضول القديم يعود. ضغطت على يده وقالت لوالديها:

ـ نحتاج أياماً نفكر فيها... لكننا ممتنان جداً.

في طريق العودة إلى الشقة، كان أبوللو داخل حاملة القطط على المقعد الخلفي، وأحمد يقود في صمت. قالت سلاف:

ـ لو رفضنا سنظل نغرق هنا. ولو قبلنا... سنأخذ معنا ما نستطيع من بعضنا، ونترك الظلام وراءنا لفترة.

فأجاب أحمد وهو ينظر إلى الطريق:

ـ وأبوللو كمان؟

فضحكت للمرة الأولى منذ أسابيع:

ـ أبوللو أكيد. مش هنسيبه لحد.

وعادا إلى الشقة، والقطّ السيامي يموء بخفّة وهو يخرج من الحاملة، والليل المصري ثقيلٌ في الخارج، بينما في داخلهما بدأ شيءٌ يشبه الأمل الصغير يتحرّك من جديد: أمل الرحلة، أمل البحر، أمل مدنٍ بعيدة لم يدمّرها بعدُ ما دمّر بلديهما.

الفصل الثاني عشر

من رواية «المصري الأخير»

في صباحٍ صيفيٍّ من سنة ألفين واثني عشر، أغلق أحمد وسلاف باب شقة المهندسين للمرة الأخيرة قبل الرحيل الطويل.

حمل أحمد حاملة القطّ السيامي بعناية، وأبوللو شوجركين يموء بصوتٍ خفيفٍ كأنّه يدرك أنّ شيئاً كبيراً يحدث. سلاف كانت تراجع الحقائب مرةً أخيرة: ملابس خفيفة وثقيلة، جوازات السفر الثلاثة (جوازها السوري وجوازه المصري وجوازٌ خاصٌّ للقطّ رتّبه والدها)، ودفاتر صغيرة كتب فيها أحمد أسماء المدن التي سيزورونها، وصورةً قديمة لعبد الناصر طواها ووضعها في جيبه الداخلي.

صعدا إلى السيارة التي أرسلها السفير، وانطلقا على طريق القاهرة–الإسكندرية الصحراوي. كان الطريق مألوفاً لأحمد، لكنّه اليوم بدا مختلفاً. مصر من حوله ما زالت غارقة في اضطرابها، واللافتات والإخوان

والسلفيون والأخبار السيئة لم تختفِ، لكنّهما كانا يغادرانها لفترة، وربما إلى الأبد إن اقتضى الأمر. سلاف وضعت رأسها على كتفه أثناء القيادة، وأبوللو نام في حاملته على المقعد الخلفي.

وصلا إلى الإسكندرية بعد الظهر. المدينة كانت كما يحبّانها: رائحة البحر، والكورنيش الممتد، والمكتبة الجديدة التي زاراها معاً في صيف ألفين وعشرة، والمقاهي التي جلسا فيها يتحدثان عن ناصر وعن سوريا. هذه المرة لم يأتيا للتجوال الطويل؛ أتيا ليغادرا.

توجهوا مباشرة إلى الميناء. السفينة كانت كبيرة، بيضاء، تنتظر في الرصيف المخصص للرحلات السياحية الطويلة. على متنها غرف واسعة، ومطعم، وسطح مفتوح يواجه البحر. رتّب والد سلاف كل شيء مسبقاً: المقصورة الخاصة بهما، والمكان المخصص للقطّ، والوجبات، وحتى الكتب التي طلبها أحمد.

قبل الصعود وقف الثلاثي على الرصيف دقيقةً إضافية. أحمد حمل الحاملة وفتح بابها قليلاً كي يرى أبوللو البحر للمرة الأولى. القطّ مدّ رأسه، وشمّ الهواء المالح، ثم عاد وانكمش في مكانه بأمان. سلاف أمسكت يد أحمد وقالت بصوتٍ منخفض:

ـ آخر نظرة على مصر... لفترة.

فأجابها وهو ينظر إلى الأفق البحري:

ـ وإلى سوريا من بعيد... في القلب.

صعدوا السلم المتحرك. الموظفون على السفينة استقبلوهما بالابتسامات المعتادة، وساعدوهما في حمل الحقائب، وشرحوا لهما طريق المقصورة. الغرفة كانت واسعة، بنافذتين تطلّان على البحر، وسرير كبير، وركن صغير مجهّز للقطّ بطعامٍ وماءٍ وسريرٍ خاص. وضع أحمد الحاملة على الأرض وفتحها، فخرج أبوللو بحذرٍ وبدأ يستكشف الزوايا الجديدة.

بعد ساعةٍ أقلعت السفينة.

وقفا معاً على السطح الخلفي، والمدينة تصغر خلفهما تدريجياً. الإسكندرية التي أحبّاها، والكورنيش، والمكتبة، والمقاهي، كلها تبتعد. البحر اتسع أمامهما، أزرق ورمادي تحت سماءٍ صيفيةٍ صافية. سلاف وضعت رأسها على كتف أحمد، وهو وضع ذراعه حول كتفيها. أبوللو بقي في المقصورة هذه المرة، نائماً بعد الإثارة الأولى.

همست سلاف:

ـ أول محطة... اليونان.

فابتسم أحمد ابتسامةً هادئة، أول ابتسامةٍ حقيقية منذ أسابيع:

ـ أرض الآلهة القديمة التي نشبهها أكثر مما نشبه آلهة الإبراهيمية. مناسبٌ جداً لنا.

السفينة شقّت الماء بثبات، والإسكندرية اختفت تماماً خلف الأفق. مصر بقيت وراءهما بكل فوضاها وأحزانها وإخوانها وسلفييها، وسوريا بقيت في قلبهما مشتعلة وبعيدة. أما هما، مع قطّهما السيامي، فكانا يبدآن الرحلة التي وعدهما بها والدا سلاف: رحلة البحر أولاً، ثم العالم بعد ذلك.

وفي المقصورة لاحقاً، بعد أن تعشّيا ورتّبا أغراضهما، جلسا على السرير وأبوللو بينهما. البحر يتحرّك تحتهم بحركةٍ منتظمة، والنوافذ مفتوحة على الظلام المائي. قال أحمد وهو يمرّر يده على ظهر القطّ:

ـ كنا المصري الأخير والسورية التي أحبّته... والآن صرنا مسافرَين.

فردّت سلاف وهي تقبّل خده:

ـ مسافرَين يحملان معهما كل شيء: الحب، والفضول، والرفض، والقطّ، والحزن القديم. ويحاولان أن يجدوا مكاناً أوسع قليلاً للتنفّس.

السفينة واصلت طريقها نحو اليونان، والليل البحري طويل وهادئ، ولأول مرة منذ شهورٍ طويلة شعر الاثنان أنّ شيئاً يشبه البداية الجديدة يفتح أمامهما على صفحة الماء.

الفصل الثالث عشر

من رواية «المصري الأخير»

في الليلة الأولى على متن السفينة، بعد أن نام أبوللو شوجركين في ركنه الدافئ، جلست سلاف أمام النافذة المفتوحة تنظر إلى السواد المائي المتحرك. لم تكن هادئة تماماً. كانت يدها تمسك حافة النافذة بقوةٍ خفيفة، وعيناها تحدّقان في الأفق كأنّها ما زالت ترى القاهرة ودمشق خلفها.

قال أحمد من خلفها بصوتٍ هادئ:

ـ بتفكري فيهم.

لم تلتفت. أجابت بصوتٍ منخفض:

ـ أهلي... وأهلك... ومصر... وسوريا... وليبيا كمان. كلهم ورايا زي ما هم. القلق ما بيروحش لأننا ركبنا سفينة.

اقترب أحمد ووقف إلى جانبها. وضع يده على كتفها دون أن يحاول سحبها من النافذة فوراً.

ـ أنا عارف. وأنا كمان قلقي ما اختفاش. بس لو فضلنا شايلين كل الهم ده معانا على السطح وعلى السرير وفي الأكل، الرحلة دي هتبقى مجرد هروب فاشل مش رحلة.

التفتت إليه أخيراً. عيناها كانت لامعتين قليلاً من الرطوبة التي لم تنزل بعد.

ـ طيب نعمل إيه؟ ننسى إن في ناس بنحبهم هناك؟ ننسى إن بلدين بننتمي ليهم بيتقطعوا؟

هزه رأسه ببطء.

ـ مش ننسى الناس. نسيب الهم وراء ظهرنا مؤقتاً. نقرر إننا مش في ألفين واتناشر. نقرر إننا لسه في ألفين وعشرة.

صمتت سلاف لحظة، ثم رفعت حاجباً كأنها لم تفهم تماماً.

ـ ألفين وعشرة؟

ـ أيوه. الصيف اللي طفنا فيه مصر من الأهرامات لأبو سمبل. الشتاء اللي طفنا فيه سوريا من دمشق لتدمر. قبل ما الدنيا تتقلب. قبل يناير مصر، وقبل مارس سوريا، وقبل سقوط طرابلس. نعيش الرحلة دي كأن الزمن وقف هناك. كأن مبارك لسه ما سقطش، والأسد لسه دولته واقفة هادية، والقذافي لسه في مكانه. كأن الإخوان والسلفيين والقاعدة والجزيرة وأردوغان وآل سعود ما كانوش وصلوا للي هما فيه دلوقتي.

ابتسمت سلاف ابتسامةً صغيرةً مرّة.

ـ أنت بتحاول تعمل لي خدعة عقلية يا أحمد.

ـ مش خدعة. اتفاق. بيني وبينك. لما ننزل اليونان، نبقى اتنين من سنة ألفين وعشرة. لما نلف سواحل أوروبا والجزائر والمغرب، نبقى لسه هناك. لما نطير لأمريكا وكندا والمكسيك والباقي... نفضل في الزمن القديم. الأحزان هتفضل موجودة في الخلفية، بس مش هنخليها تقود السفينة.

ظلت سلاف صامتة وقتاً أطول. ثم تنهدت وتنحت قليلاً عن النافذة واقتربت منه. وضع ذراعيه حولها، وهي أخفت وجهها في صدره لحظة.

ـ طيب... نجرّب. نسيب الهم وراء ظهرنا. ونحاول نصدّق إننا لسه في ألفين وعشرة.

رفع رأسها ونظرت إليه:

ـ بس لو ضعفنا... تفتكرني.

ـ وأنا كمان. نفتكر بعض ونرجع للاتفاق.

قبّلها على جبهتها، ثم على فمها قبلةً هادئة. بعد ذلك أغلقا النافذة جزئياً كي لا يدخل الهواء البحري بارداً أكثر من اللازم، وذهبا إلى السرير. أبوللو حرّك أذنيه وهو نائم دون أن يستيقظ تماماً.

في الصباح التالي، حين أشرقت الشمس على سطح البحر المتوسط، وقفا معاً على السطح الأمامي والسفينة تشق الماء باتجاه اليونان. سلاف أمسكت يد أحمد وقالت بصوتٍ أوضح من الليلة السابقة:

ـ صباح الخير... من سنة ألفين وعشرة.

فابتسم أحمد وردّ:

ـ صباح الخير. لسه الصيف قدامنا، والشتاء كمان.

والبحر من حولهما كان واسعاً وأزرق، واليونان تقترب ببطء، والهموم التي حاولوا تركها على رصيف الإسكندرية بدت، ولو لساعات، أبعد قليلاً مما كانت عليه في الليلة السابقة.

الفصل الرابع عشر

من رواية «المصري الأخير»

هبطت السفينة في ميناء بيرايوس صباح يومٍ صيفيٍّ صافٍ من سنة ألفين واثني عشر.

لكن أحمد وسلاف لم ينزلا كأنهما في ألفين واثني عشر. نزلا كأنهما ما زالا في ألفين وعشرة.

اتفقا على ذلك في الليلة السابقة، وأعادا الاتفاق مرةً أخرى وهما يقفان على السلم المتحرك:

ـ من اليوم... إحنا في الصيف اللي فات.

ـ الصيف اللي طفنا فيه مصر، والشتاء اللي طفنا فيه سوريا. قبل كل حاجة.

حمل أحمد حاملة القطّ، وأبوللو شوجركين مدّ رأسه الصغير وشمّ الهواء اليوناني الجديد. سلاف أمسكت يد أحمد بقوة، كأن اليد نفسها هي الجواز الذي يعبران به الزمن إلى الخلف.

استقبلا سيارةً صغيرة وانطلقا نحو أثينا. المدينة كانت بيضاء ومتوهجة تحت الشمس، والتلال المحيطة بها تذكّر أحمد بتلال المقطم من بعيد، لكنّه لم يقل ذلك. قال فقط:

ـ كأننا جينا في الوقت الصح.

في الفندق المطل على الأكروبوليس اختارا غرفةً واسعة بنافذتين كبيرتين. فتحا الحاملة فخرج أبوللو بحذر، تجوّل بين الأرجل، ثم قفز على حافة النافذة وجلس يراقب المدينة كأنّه يعرف أنّه وصل إلى أرض الآلهة القديمة.

في ذلك المساء صعدا إلى الأكروبوليس.

مشيا ببطء بين الأعمدة البيضاء، وأحمد يمسك يد سلاف كما كان يمسكها أمام الأهرامات قبل سنتين. وقفا أمام البارثينون طويلاً. قالت سلاف وهي تنظر إلى التماثيل الناقصة:

ـ هنا كانوا بيؤمنوا بآلهة كتير... رجالة وستات. مش إله واحد غيور.

فابتسم أحمد:

ـ وهنا الزمن مش خط مستقيم. زي ما قلتي إنتِ قدام الأهرامات. دايرة بترجع.

جلسا على حجرٍ قديم يواجه المدينة، والشمس تغرب خلف التلال. أبوللو لم يكن معهما هذه المرة؛ تركاه في الغرفة نائماً بعد رحلة البحر الطويلة. تكلما عن أثينا القديمة كما كانا يتكلمان عن دمشق وتدمر: بهدوء، وبلا استعجال، وكأن لا شيء قد انهار في العالم بعد.

في الليلة الأولى بأثينا، بعد أن تعشّيا وأغلقا الباب، لم يكن الجسد هادئاً كما كان في ربيع سنتهما الأولى.

كان أكثر جوعاً.

سلاف وقفت أمام النافذة المفتوحة، والهواء الدافئ يرفع ستائر الغرفة، وأحمد جاء من خلفها وضمّها بقوة. نزع ملابسها ببطءٍ متعمد، وهي تلتفت إليه وتبتسم الابتسامة التي صارت تعرف أنها تشعله. ناما على السرير الكبير والمدينة تضيء تحتهما، والجسدان يبحثان عن بعضهما كأنّ السنوات intervening لم تحدث. كان الإيقاع هذه المرة أعمق وأكثر تنوعاً مما كان في المهندسين؛ كأن الرحلة علّمتهما أن الوقت الذي يملكانه ليس مضموناً. بعد أن هدآ، وضعت سلاف رأسها على صدره وقالت بصوتٍ خافت:

ـ إحنا فعلاً رجعنا؟

فأجاب وهو يمرّر أصابعه في شعرها الأسود:

ـ رجعنا. على الأقل الليلة دي.

في الأيام التالية زارا دلفي.

صعدا الجبل المقدس، ووقفا أمام الهيكل حيث كانت العرافة تتكلم باسم أبولو. أحمد نظر إلى سلاف وقال نصف جاد:

ـ اسم القطّ مناسب أكتر مما كنا نتصور.

فضحكت، وكان ضحكها خفيفاً وحقيقياً لأول مرة منذ أسابيع طويلة في القاهرة. مشيا بين الأعمدة والأشجار، وتحدثا عن الآلهة التي لا تطالب بالطاعة اليومية ولا بالقتل باسمها. قالت سلاف:

ـ لو كان في آلهة... يبقى زي دول. يخلقوا ويسيبونا.

فأيدّها أحمد بهزّة رأسٍ صامتة.

ثم ذهبا إلى أوليمبيا. مشيا في الملعب القديم، وجلسا على الحجارة حيث كان المتفرجون يجلسون قبل آلاف السنين. أحسّ أحمد أن صدره يتسع قليلاً، كما اتسع أمام أبو سمبل. قال:

ـ هنا كانوا بيحتفلوا بالجسد مش بيخجلوا منه.

فسلاف أمسكت يده وقالت:

ـ وإحنا كمان مش هنخجل.

في ليالي أثينا التالية صارت الغرفة عالماً صغيراً مكتمل الشروط.

الحاسوب مفتوح أحياناً على القصص أو الأفلام التي اعتادا مشاهدتها معاً، ثم يغلقانه بسرعة وينتقلان إلى بعضهما. أبوللو كان ينام في ركنه أو يقفز على السرير بعد أن يهدآ، فيجد مكاناً دافئاً بين جسديهما. كانا يضحكان أحياناً من وجوده، ثم يعودان إلى الصمت الجميل الذي يلي الشراهة.

في أحد الأمسِية، بينما كانا يجلسان على الشرفة والأكروبوليس مضاءً أمامهما، قالت سلاف:

ـ لو فضلنا ماشيين كده... هنقدر نكمل الرحلة كلها من غير ما الهم يرجع؟

فنظر أحمد إلى المدينة البيضاء وقال:

ـ مش هنقدر ننسى خالص. بس هنقدر نخليه ورا ضهرنا. زي ما اتفقنا. إحنا في ألفين وعشرة. الصيف لسه قدامنا، والشتاء كمان.

ضغطت على يده، وأبوللو مواء مواءً خفيفاً من داخل الغرفة كأنّه يوافق.

وهكذا بدأت اليونان.

أرض الآلهة القديمة التي اختاراها لتكون بوابة العودة إلى الزمن الذي أحباه.

وخلفهما بقيت مصر بكل فوضاها، وسوريا بكل اشتعالها، والعالم الذي قررا مؤقتاً أن يشيحا بوجهيهما عنه.

أما هما، مع قطّهما السيامي، فكانا يبدآن صفحةً جديدة على أرضٍ كانت تؤمن يوماً بأنّ السماء واسعة بما يكفي لآلهةٍ كثيرة... ولحبٍّ لا يحتاج إذناً من أحد.

الفصل الخامس عشر

من رواية «المصري الأخير»

غادرت السفينة بيرايوس بعد أسبوعٍ كامل في اليونان، وشقّت الماء غرباً نحو السواحل الإيطالية.

أحمد وسلاف وقفا على السطح الأمامي، وأبوللو نائم في الحاملة تحت المقعد الخشبي. قال أحمد وهو ينظر إلى الأفق:

ـ دلوقتي روما. الجمهورية اللي انهارت من جواها قبل ما يغزوها حد من برّه.

فسلاف أمسكت ذراعه وقالت بهدوء:

ـ وإحنا لسه في ألفين وعشرة. افتكر الاتفاق.

هبطوا في نابولي أولاً.

المدينة صاخبة ودافئة ورائحة البحر تختلط فيها برائحة القهوة والبيتزا. تجوّلا في الأحياء القديمة، وصعدا إلى قلعة سانت إلمو، وجلسا أمام خليج نابولي والزفير يدخن في الأفق. أحمد أخرج دفتره الصغير وكتب بضع كلمات سريعة ثم أغلقه. سلاف سألته:

ـ بتكتب إيه؟

ـ ملاحظات... عن الجمهوريات اللي بتسقط من جواها مش من برّه. زي روما زمان... وزي اللي شفناه إحنا.

لم يُطِل الحديث. كان الاتفاق يقضي بأن يبقيا الهم خلفهما، فطواه مع الدفتر في جيبه الداخلي.

في الليلة الأولى بنابولي كانت الغرفة تطل على البحر، والنافذة مفتوحة على مصراعيها.

لم ينتظرا طويلاً. سلاف جاءت إليه مباشرة بعد أن استحمّا، وعيناها تحملان الجوع الذي صار مألوفاً منذ منتصف سنة ألفين واثني عشر. أحمد حملها إلى السرير بقوةٍ أكبر مما اعتاد في أثينا، وهي لفّت ساقيها حوله كأنّها تخاف أن يفلت منها مع حركة السفينة السابقة. كان الجسد هذه المرة أكثر إلحاحاً، وأكثر صخباً في أنفاسه. بعد أن هدآ، استلقى أبوللو بينهما ومدّ مخالبه برفقٍ على ذراع أحمد، فضحكا بهدوء.

من نابولي انطلقا إلى روما.

المدينة كانت أكبر وأكثر ازدحاماً مما تخيلأحمد. مشيا ساعاتٍ طويلة في المنتدى الروماني، بين أنقاض المعابد والأقواس. وقفا أمام البانثيون طويلاً، القبة الهائلة مفتوحة على السماء. قالت سلاف:

ـ هنا كانوا بيصلّوا لكل الآلهة... مش لإله واحد.

فأيدّها أحمد:

ـ عشان كده المكان ده لسه واقف. اللي بيحاول يفرض إله واحد بيهدم أكتر مما يبني.

جلسوا على درجٍ حجريٍّ قديم، وأحمد أخرج دفتره مرةً أخرى. كتب بضع جمل عن التشابه بين انهيار الجمهورية الرومانية تحت وطأة الفساد والانقسام الداخلي، وبين ما رأياه يحدث للجمهوريات العربية. ثم طوى الدفتر بسرعة كأنّه يخفي سلاحاً.

في ليالي روما صارت الشراهة أعمق.

الفندق كان قديماً وأنيقاً قرب ساحة نافونا. بعد أن يعودا من التجوال، كانا يغلقان الباب ويتركان المدينة وراءهما تماماً. أحياناً يشاهدان معاً مشاهد على الحاسوب، ثم ينتقلان إلى تطبيق ما رأياه بجرأةٍ متزايدة. سلاف صارت تطلب بوضوح، وأحمد صار يستجيب بلا تردد. الجسد الذي اكتشف الجسد في المهندسين صار الآن يعرف طرقاً كثيرة للوصول إلى الامتلاء نفسه. أبوللو كان ينام في ركنه أو يخرج أحياناً إلى الشرفة الصغيرة ويتركهما لليلتهما.

ثم فلورنسا.

المدينة أصغر وأكثر كثافةً بالفن. وقفا أمام تمثال داوود طويلاً، وأحمد قال نصف هامس:

ـ الجسد هنا مش عيب... الجسد هنا عمل فني.

فسلاف لمست ذراعه وقالت:

ـ وإحنا كمان بنعمل الفن بتاعنا كل ليلة.

تجوّلا في الكنائس والمتاحف، لكنّهما كانا ينظران إلى المنحوتات الوثنية أكثر مما ينظران إلى اللوحات الدينية. في المساء عادا إلى الغرفة المطلة على نهر الأرنو، وكان الإيقاع الجسدي هذه المرة أبطأ وأكثر تأملاً، كأن فلورنسا علّمتهما أنّ الجمال يحتاج وقتاً.

وأخيراً البندقية.

المدينة العائمة التي تبدو وكأنها لا تنتمي إلى زمنٍ محدد. ركبا الجندول في المساء، وسلاف تتكئ على كتفه، وأبوللو في الحاملة بين قدميهما ينظر بدهشة إلى الماء الأسود. قال أحمد:

ـ هنا الزمن واقف فعلاً. مناسب لنا.

فضحكت سلاف وقبلت خده.

في ليالي البندقية كانت الغرفة تطل على قناةٍ ضيقة، وصوت الماء يصل إليهما مع كل موجة صغيرة. الشراهة بلغت ذروةً جديدة. لم يعودا يكتفيان بما اعتادا عليه؛ صارا يجربان ما شاهداه وما قرأاه بمزيد من الثقة والفضول. بعد أن يهدآ، كانت سلاف تهمس أحياناً:

ـ كأننا كل ما بعدنا عن مصر وسوريا... بنقرب من بعض أكتر.

فيردّ أحمد وهو يمسح العرق عن جبينها:

ـ لأن هنا مفيش غيرنا. مفيش أخبار... مفيش ميادين... مفيش غير الجسد والليل والقناة اللي برّه.

في الليلة الأخيرة بالبندقية، قبل أن يغادروا إيطاليا، جلسا على الشرفة الضيقة وأبوللو نائم على حجر سلاف. أخرج أحمد دفتره وكتب صفحةً كاملة هذه المرة: عن الجمهوريات التي تنهار حين تفقد قدرتها على حماية نفسها من الانقسام الداخلي، وعن روما التي سقطت قبل أن يدخلها البربر بوقت طويل. ثم أغلق الدفتر ووضعه بجانب الجوازين اللذين ما زالا يسافران معهما جنباً إلى جنب.

قالت سلاف:

ـ هتفضل تكتب الملاحظات دي طول الرحلة؟

فأجاب بصوتٍ هادئ:

ـ هكتبها... وأسيبها في الدفتر. مش هخليها تركب معانا على السرير ولا على الترابيزة. الاتفاق لسه قائم.

ضغطت على يده، ونظرت إلى القناة السوداء تحتهم.

إيطاليا كانت قد انتهت، لكن شيئاً من روما القديمة بقي في دفتر أحمد، وشيئاً من الشراهة بقي في جسديهما، وشيئاً من الهدوء بقي في عيني أبوللو وهو يغط في نومه.

وغداً كانت السفينة ستمضي بهم غرباً مرةً أخرى... نحو إسبانيا، ونحو اتفاقهم الذي يحاولون أن يحموه من العالم كله.

الفصل السادس عشر

من رواية «المصري الأخير»

غادرت السفينة البندقية في صباحٍ ضبابي، وشقّت البحر غرباً نحو السواحل الإسبانية.

أحمد وسلاف وقفا على السطح الخلفي، المدينة العائمة تبتعد خلفهما كحلمٍ قديم. أبوللو كان في الحاملة بين قدميهما، يموء من حينٍ إلى آخر كأنه يشعر بتغيّر الهواء. قالت سلاف وهي تلفّ وشاحاً خفيفاً حول عنقها:

ـ إسبانيا دلوقتي.

فأجاب أحمد وهو يضع ذراعه حول كتفيها:

ـ وإحنا لسه في ألفين وعشرة. مفيش ربيع ولا خريف... في صيف بس.

هبطوا في برشلونة أولاً.

المدينة كانت مشرقة وصاخبة ومليئة بالسياح، وشوارعها تذكّر سلاف أحياناً بدمشق القديمة في اتساعها وضيقها المتداخل. تجوّلا في الحي القوطي ساعاتٍ طويلة، وصعدا إلى ساغرادا فاميليا ونظرا إلى الأبراج الشاهقة دون أن يدخلا. أحمد أخرج دفتره وكتب بضع كلمات عن المدن التي تبني للمستقبل بينما جمهوريات أخرى تنهار، ثم طواه بسرعة.

في مساء اليوم الثاني ببرشلونة حدث اللقاء.

كانا يجلسان في مقهىً صغير قرب الميناء، وأبوللو في حاملته تحت الطاولة، حين اقترب منهما رجلٌ في الخمسينيات، مغربي الملامح، يتكلم الإسبانية بطلاقة والعربية بلكنةٍ واضحة. اعتذر عن الإزعاج ثم قال إنه سمعهما يتحدثان بالعربية، وإنه منفي منذ سنوات. جلس على كرسيٍّ فارغ بعد أن أذنا له، وتحدث بهدوء عن «الربيع» الذي يسميه الجميع ربيعاً وهو يراه خريفاً طويلاً أسود. قال:

ـ أنا شفت تونس من جواها... وشفت اللي حصل في ليبيا. مش ثورات شعوب. دا مشروع كبير، واللي بيدفع التمن هم اللي كانوا بيحاولوا يبنوا دول مش مليشيات.

أحمد وسلاف تبادلا نظرةً سريعة. الاتفاق كان يقضي بأن يبقيا الهم خلفهما، لكن الرجل كان يتكلم بما يفكران فيه تماماً. استمعا دون أن يقاطعا، ثم شكره أحمد بصوتٍ هادئ وأنهى الحديث بلباقة. بعد أن انصرف الرجل، صمتا قليلاً. قالت سلاف:

ـ الاتفاق اتخرم شوية النهارده.

فأجاب أحمد وهو يمسك يدها تحت الطاولة:

ـ اتخرم... وهنرقّعه تاني. مش هنخلي الكلام يركب معانا على السرير.

في الليلة نفسها حاولا أن يعودا إلى الاتفاق بقوة الجسد.

الغرفة كانت تطل على البحر المتوسط من جهةٍ أخرى، والنافذة مفتوحة. جاءا إلى بعضهما بشراهةٍ أكبر مما كانت في البندقية، كأنّهما يريدان أن يمحوا صوت الرجل المغربي بكل لمسةٍ وكل أنين. بعد أن هدآ، استلقى أبوللو بينهما كالعادة، وناما أخيراً.

من برشلونة انطلقا إلى مدريد.

المدينة الداخلية كانت أكثر جفافاً وأكثر رسمية. زارا المتحف البرادو ونظرا إلى اللوحات الطويلة، لكنّهما شعرا أنّ الفن هنا أثقل مما كان في فلورنسا. في أحد المقاهي القريبة من البلازا مايور تسربت أخبار عبر هاتف سلاف الذي فتحته دون قصد: صور من حمص، وخطابٌ جديد لأحد الدعاة في القاهرة. أغلقت الهاتف بسرعة، لكن الصمت الذي تلا ذلك كان ثقيلاً. قال أحمد:

ـ مش هنفتح تاني إلا للضرورة.

فأيدّته هي بهزّة رأس.

في تلك الليلة مرض أبوللو.

بدأ الأمر بموءٍ ضعيف ورفضٍ للطعام، ثم تقيأ مرتين على سجادة الغرفة. جلسا بجانبه على الأرض ساعاتٍ طويلة. سلاف لفّته ببطانيةٍ خفيفة، وأحمد بحث عن بيطرية قريبة عبر هاتفه بحذر. أخذا القطّ في تاكسي في منتصف الليل، وانتظرا في العيادة الصغيرة حتى اطمأن الطبيب أنّ الأمر مجرد اضطرابٍ معوي بسبب تغيّر الطعام والجو. عادا إلى الفندق مع دواءٍ سائل وحقنةٍ خفيفة.

طوال الليل تناوبا على مراقبته. سلاف كانت تمسح رأسه بقطنةٍ مبللة، وأحمد يضع يده على جنبه الصغير ليشعر بحرارة جسمه. قال أحمد بصوتٍ منخفض جداً:

ـ هو كمان مسافر معانا في الاتفاق ده... مش لازم يتعب.

فسلاف أجابت وهي تبتسم ابتسامةً متعبة:

ـ مش هيتعب. إحنا معاه.

في الصباح التالي كان أبوللو قد تحسّن. أكل قليلاً، ثم قفز بحذر على السرير ونام بين وسادتيهما. شعرا كأنّ شيئاً كبيراً قد انزاح عن صدرهما.

ثم الساحل مرةً أخرى: فالنسيا ثم الأعلى نحو الحدود الفرنسية.

في مدينةٍ ساحلية صغيرة جنوبي فرنسا توقفا يومين. البحر هنا كان أهدأ، والناس أقلّ صخباً. مشيا على الشاطئ في الصباح الباكر، وأبوللو يمشي معهما مربوطاً بحزامٍ رفيع لأول مرة. قالت سلاف وهي تنظر إلى الأفق:

ـ اللقاء بتاع برشلونة والأخبار اللي تسربت... خلّوني أحس إن الاتفاق أضعف مما كنت فاكرة.

فوقف أحمد وأمسك كتفيها:

ـ الاتفاق مش جدار سميك. هو خيط رفيع بنشدّه كل يوم. لو اتفك شوية... بنربطه تاني. زي ما عملنا مع أبوللو امبارح.

في الليلة الأخيرة قبل مغادرة الجنوب الفرنسي، عاد الجسد إلى صدارته.

كانا أكثر هدوءاً هذه المرة، وأكثر امتناناً. بعد أن انتهيا، وضعت سلاف رأسها على صدره وقالت:

ـ شكراً إنك رقّعت الخيط.

فأجاب وهو يقبّل شعرها:

ـ وإحنا الاتنين بنرقّعه. ومعانا القطّ كمان.

إسبانيا وجنوب فرنسا انتهتا.

شيءٌ من الواقع كان قد تسرب، وشيءٌ من الحنان الزائد على أبوللو كان قد أعادهما إلى بعضهما، وشيءٌ من الاتفاق كان ما زال معلقاً في الهواء بينهما... رفيعاً، لكنه لم ينقطع بعد.

وغداً كانت السفينة، أو الطائرة، ستحملهما جنوباً نحو الجزائر والمغرب... حيث يقترب الوطن القديم من جديد، ويصبح الحفاظ على ألفين وعشرة أصعب قليلاً.

الفصل السادس عشر (ب)

من رواية «المصري الأخير»

بعد جنوب فرنسا لم يتجهوا جنوباً مباشرةً نحو الجزائر.

بدلاً من ذلك انحرفا شمالاً وشرقاً، في رحلةٍ إضافيةٍ لم تكونا قد خططتا لها بدقة، لكنّهما شعرا فجأةً أنّهما يحتاجانها. قالت سلاف ذات مساءٍ في مدينةٍ ساحلية فرنسية صغيرة، وأبوللو نائم على ركبتيها:

ـ قبل المغرب... عايزين نشوف الإمبراطوريات اللي كانت عارفة تحافظ على نفسها.

فأيدّها أحمد فوراً:

ـ ألمانيا والنمسا-المجر. دول كانوا بيفهموا معنى الدولة.

بدأوا بألمانيا.

هبطوا في ميونيخ أولاً. المدينة كانت منظمةً وهادئةً وخضراء، والشوارع عريضة والناس يمشون بخطواتٍ محسوبة. تجوّلا في القصر الكبير وحدائق الإنجليزية، ووقفا أمام تماثيل الملوك والجنرالات. أحمد أخرج دفتره وكتب ببطء:

«الإمبراطورية الألمانية لم تكن مثالية، لكنّها كانت تعرف كيف تبني جيشاً ومصانع ومدارس في الوقت نفسه. لم تترك الشارع يحكم».

سلاف قرأت الجملة من فوق كتفه وقالت:

ـ وإحنا بنحب النظام ده... حتى لو كان قاسياً أحياناً.

في برلين مشيا ساعاتٍ طويلة بين المباني الثقيلة والجسور. زارا المتحف البرجامون ونظرا إلى بوابة عشتار، ثم جلسا على ضفاف نهر السبري. كان أحمد أكثر صمتاً من المعتاد. قال أخيراً:

ـ هنا كانت دولة بتعرف تمسك نفسها. مش زي الجمهوريات اللي سيبنا ها وهي بتتفكك من جواها.

فسلاف أمسكت يده وقالت:

ـ وإحنا لسه في ألفين وعشرة. افتكر.

ليالي برلين كانت باردةً نسبياً، والغرفة في الفندق القديم قرب البوابة البراندنبورغية واسعة. الشراهة جاءت هذه المرة مصحوبةً بنوعٍ من الجوع إلى النظام والثبات. كان أحمد يمسكها بقوةٍ أكبر، كأنّه يحاول أن يثبت شيئاً يتفلت من العالم كله. سلاف استجابت بنفس القدر من الإلحاح، وبعد أن هدآ نام أبوللو بينهما كالعادة، رأسه على ذراع أحدهما.

من ألمانيا انتقلوا إلى النمسا.

فيينا استقبلتهم بموسيقى خافتة وقصورٍ بيضاء وأنهارٍ هادئة. مشيا في شونبرون، ودخلا المتاحف، وجلسا في مقاهٍ قديمة يشربان القهوة ويراقبان الناس. قالت سلاف وهي تنظر إلى تمثال إمبراطورة:

ـ الإمبراطورية النمساوية المجرية كانت متعددة القوميات... ومع ذلك فضلت واقفة قرون.

فأيدّها أحمد:

ـ لأن كان في مركز. كان في فكرة للدولة أكبر من الطوائف. زي اللي كان ناصر بيحاول يعمله... وزي اللي شفناه في سوريا قبل العاصفة.

في براغ، عاصمة التشيك، أحسّا بشيءٍ مختلف. المدينة كانت أجمل مما توقعا، والجسور القديمة والنهر والتلال تذكّرهما بدمشق من زاويةٍ بعيدة. صعدا إلى القلعة، ونزلا إلى الساحة الرئيسية، وجلسا أمام الساعة الفلكية. أحمد كتب في دفتره:

«الإمبراطوريات تسقط حين تفقد الثقة في نفسها قبل أن تفقد جيوشها».

سلاف قرأت وأضافت بصوتٍ خافت:

ـ وإحنا بنشوف السقوط ده قدام عينينا من سنين.

في سلوفاكيا ثم المجر تسارع الإيقاع.

براتيسلافا كانت هادئة وصغيرة، وبودابست كانت واسعة ونهر الدانوب يشقها كما يشق النيل أرض مصر. وقفا على جسر السلاسل طويلاً، والماء يجري تحتهما. قال أحمد:

ـ هنا كانت بودابست شريكة في إمبراطورية. مش مجرد عاصمة صغيرة.

فسلاف أجابت وهي تتكئ على الدرابزين:

ـ زي ما كان ممكن تكون القاهرة ودمشق شريكتين في حاجة أكبر... لو الزمن سمح.

بولندا جاءت بعد ذلك.

وارسو ثم كراكوف. المدينة القديمة في كراكوف كانت محفوظة بعناية، والكنائس والساحات تروي تاريخاً طويلاً من المقاومة والبقاء. أحمد شعر بثقل التاريخ أكثر مما شعر في أي مكانٍ سابق. كتب في دفتره ليلاً:

«الدول التي تتذكر هزائمها جيداً تعرف كيف لا تكررها. أمّا التي تنسى... فتعيد الخريف كل بضعة عقود».

أخيراً جمهوريات يوغوسلافيا السابقة.

سلوفينيا كانت خضراء ومرتبة، وكرواتيا ساحلية وجميلة، والمشهد يتغير كلما اتجهوا جنوباً. في زغرب وسبليت وليوبليانا شعروا ببقايا إمبراطوريةٍ تفككت ثم حاولت أن تعيد تركيب نفسها تحت اسمٍ آخر ثم انهارت مرةً ثانية. قالت سلاف ذات مساءٍ في دوبروفنيك، والبحر الأدرياتيكي يلمع أمامهما:

ـ يوغوسلافيا كانت محاولة... فشلت لأن المركز ضعف.

فأيّدها أحمد:

ـ وكل المحاولات اللي فشلت بعد كده في منطقتنا فشلت لنفس السبب: مفيش مركز قوي، ومفيش فكرة أكبر من الطائفة والسلاح والفلوس الخارجية.

طوال هذه الرحلة الوسطى حافظا على الاتفاق قدر الإمكان.

الأخبار كانت تتسرب أحياناً عبر شاشات في الفنادق أو أحاديث عابرة، لكنّهما كانا يعيدان ربط الخيط كل ليلة. الجسد صار ملاذهما الثابت: في برلين وفيينا وبراغ وبودابست وكراكوف وزغرب، كانا ينتهيان إلى السرير نفسه، إلى الشراهة نفسها، إلى الصمت الجميل الذي يليها. أبوللو كان يسافر معهما في الحاملة، ينام على الأسرة الفندقية، ويجلس على عتبات النوافذ يراقب المدن الإمبراطورية القديمة كأنه حارسٌ صغير لتاريخٍ لا يريدان أن ينسياه.

في الليلة الأخيرة قبل أن يتجهوا جنوباً نحو الجزائر، جلسا في غرفةٍ تطل على البحر الأدرياتيكي. أخرج أحمد دفتره وراجع الصفحات التي كتبها منذ ميونيخ. قال:

ـ الإمبراطوريات دي كانت عارفة إن التنوع مش ضعف... لو في دولة قوية فوقه.

فسلاف وضعت رأسها على كتفه وأجابت:

ـ وإحنا حبيناها عشان كده. لأننا بنحلم بحاجة تشبهها... حتى لو الحلم بقا بعيد.

أبوللو مواء مواءً خفيفاً من ركنه، كأنّه يوافق مرةً أخرى.

وهكذا انتهت الرحلة الوسطى.

ألمانيا والنمسا والتشيك وسلوفاكيا والمجر وبولندا وبقايا يوغوسلافيا كانت قد منحتاهما صورةً أوضح لما يحبان: دولةً تعرف كيف تمسك نفسها، وإمبراطوريةً لا تخجل من قوتها، ومركزاً يمنع الشارع والسلاح والطائفة من أن يقرروا مصير الجميع.

وغداً كان الجنوب ينتظر: الجزائر ثم المغرب... حيث يقترب الوطن القديم من جديد، ويصبح الحفاظ على ألفين وعشرة أكثر صعوبةً، وأكثر ضرورة.

الفصل السابع عشر

من رواية «المصري الأخير»

بعد البحر الأدرياتيكي اتجهوا جنوباً أخيراً.

الطائرة أقلعت من مدينةٍ كرواتية صغيرة، وبعد ساعاتٍ قليلة هبطت في مطار الجزائر العاصمة. أحمد وسلاف خرجا إلى الهواء الدافئ الجاف، وأبوللو في الحاملة يموء محتجاً على تغيّر الضغط. قالت سلاف وهي تضبط وشاحها:

ـ رجعنا لقرب الوطن.

فأجاب أحمد بصوتٍ منخفض:

ـ قربٌ جغرافي بس. وإحنا لسه في ألفين وعشرة.

الجزائر العاصمة كانت بيضاء ومتدرجة على التلال، والبحر أمامها أزرق وقاسٍ. تجوّلا في القصبة القديمة ساعاتٍ طويلة، بين الأزقة الضيقة والمنازل المتلاصقة. أحمد شعر بشيءٍ يشبه الحنين إلى القاهرة القديمة، لكنّه لم يقل ذلك. وقف أمام البحر وقال:

ـ هنا لسه في أثر للدولة. مش زي اللي شفناه في الأماكن اللي انهارت.

فسلاف أيدّته بصمت.

في وهران كان الجو أكثر استرخاءً. مشيا على الكورنيش، وأكلا السمك المشوي، وجلسا في مقهىً يطل على المتوسط. أبوللو أُخرج من الحاملة قليلاً ومشى على الرصيف مربوطاً بحزامه الرفيع، فالتفت إليه بعض المارة بابتسامات. في المساء عادا إلى الفندق، وكانت الشراهة هذه المرة مشوبة بشيءٍ من التوتر الخفي. الجسد جاء إلى الجسد بقوةٍ أكبر، كأنّهما يشعران أنّ الوطن يقترب وأنّ الاتفاق قد يُختبر قريباً. بعد أن هدآ، استلقى القطّ بينهما ومدّ مخالبه برفق.

ثم المغرب.

هبطوا في طنجة أولاً. المدينة التي تبدو وكأنها تقف على حافة قارتين. مشيا في المدينة القديمة، وصعدا إلى الكاف، ونظرا إلى إسبانيا من بعيد عبر المضيق. قال أحمد وهو يكتب في دفتره:

«المضيق ضيق جداً... ومع ذلك العالمان مختلفان».

سلاف قرأت الجملة وقالت:

ـ زي المضيق اللي بيننا وبين اللي بيحصل في ليبيا وسوريا. قريب... وبعيد في نفس الوقت.

في الرباط كانت المدينة أكثر هدوءاً وترتيباً. تجوّلا في القصبة والأودية، ووقفا أمام البحر مرةً أخرى. ثم مراكش. الساحة الكبيرة، والأسواق، ورائحة البهارات والتوابل. في أحد المقاهي المطلة على جامع الفنا تسرب حديث عابر عن ليبيا: رجال يتكلمون عن سقوط طرابلس، عن المليشيات، عن السلاح الذي لا يزال يتدفق. أحمد سمع دون أن يظهر أنه يسمع، لكنّ يده التي كانت تمسك فنجان الشاي ارتجفت قليلاً. بعد أن انصرف الرجال، قالت سلاف بصوتٍ خافت:

ـ الاتفاق اتخرم تاني.

فأجاب أحمد وهو ينظر إلى الساحة المزدحمة:

ـ هنرقّعه الليلة.

وفي تلك الليلة كان الجسد هو وسيلة الترقيع.

الغرفة في الرياضي القديم كانت واسعة وباردة نسبياً، والنافذة تطل على حديقةٍ داخلية. جاءا إلى بعضهما بسرعة الجائع، دون مقدمات طويلة هذه المرة. سلاف طلبت بقوة، وأحمد استجاب بقوةٍ مماثلة. كان الإيقاع حاداً ومتلاحقاً، كأنّهما يطاردان شيئاً يحاول الهرب. بعد أن انتهيا، بقيت سلاف ممدةً على صدره وقتاً أطول من المعتاد. قالت:

ـ كل ما اقتربنا من المنطقة... كل ما احتجنا الجسد أكتر.

فأيدّها أحمد وهو يمرّر يده في شعرها:

ـ لأن الجسد هو المكان الوحيد اللي لسه تحت سيطرتنا تماماً.

أبوللو قفز على السرير متأخراً ونام عند أقدامهما.

في الأيام التالية بمراكش حاولا أن يعودا إلى الاتفاق بصرامة أكبر.

زورا الحدائق والمتاحف والأسواق، وتحدثا عن التاريخ القديم للمغرب وعن الدول التي استطاعت أن تحافظ على نفسها وسط العواصف. أحمد كتب في دفتره مقارنات صامتة بين ما بقي من أثر الدولة الوطنية في الجزائر والمغرب، وبين الفراغ الذي رأياه يتسع في ليبيا بعد القذافي. لم يقرأ لها ما كتب فوراً؛ ترك الصفحات تطوى مع الاتفاق.

في الليلة الأخيرة قبل مغادرة المغرب، جلسا على سطح الفندق والسماء مليئة بالنجوم. أبوللو نائم في حجر سلاف. قال أحمد:

ـ شمال أفريقيا لسه ما انهارتش بالكامل. في دول بتقاوم.

فسلاف أجابت وهي تحدّق في النجوم:

ـ وإحنا بنحب المقاومة دي... حتى لو كانت ناقصة. لأن البديل هو اللي شفناه في سرت وطرابلس.

صمتا قليلاً. ثم أضافت:

ـ بكره هنترك المتوسط ورايا. الرحلة الكبيرة لسه قدامها أمريكا.

فابتسم أحمد ابتسامةً هادئة:

ـ وإحنا لسه في ألفين وعشرة. الصيف لسه ما انتهاش.

ضغطت على يده، وأبوللو حرّك أذنيه وهو نائم دون أن يستيقظ.

وهكذا انتهت مرحلة المتوسط والمغرب العربي.

الجزائر والمغرب منحتاهما صورةً لما يمكن أن تبقى عليه الدولة حين لا تنهار تماماً، وللثمن الباهظ الذي دفعته ليبيا حين سقط مركزها. الاتفاق كان قد اهتزّ أكثر من مرة، لكنّهما رقّعاه بالجسد وبالصمت وبدفتر أحمد الصغير.

وغداً كانت الطائرة ستحملهما غرباً عبر المحيط... نحو القارة الجديدة، ونحو اختبارٍ أطول للاتفاق الذي يحاولان أن يعيشا داخله كأنّ العالم لم يتغير.

الفصل الثامن عشر

من رواية «المصري الأخير»

في الصباح الأخير بمراكش جلسا على السطح مرةً أخرى، والشمس تشرق فوق المدينة الحمراء.

أبوللو كان قد استيقظ مبكراً هذه المرة، وجلس على حافة الجدار يراقب الحمام يطير بين المآذن. سلاف صبّت الشاي، وأحمد فتح دفتره الصغير للمرة الأخيرة قبل الرحيل.

صفحات كثيرة كانت قد امتلأت منذ اليونان: ملاحظات عن الأكروبوليس، عن روما التي سقطت من داخلها، عن برلين وفيينا وبودابست، عن القصبة في الجزائر وساحة جامع الفنا. قرأ بعضها بصوتٍ خافت، ثم أغلق الدفتر ووضعه على الطاولة بجانب الجوازين. قال:

ـ المتوسط خلص. من بيرايوس لطنجة... مرور بكل الإمبراطوريات اللي حبيناها.

فسلاف أمسكت الفنجان بكلتا يديها وقالت:

ـ وإحنا لسه قادرين نقول إننا في ألفين وعشرة؟

نظر أحمد إلى المدينة تحتهم طويلاً قبل أن يجيب:

ـ قادرين. لأننا قررنا. الاتفاق مش مكان... الاتفاق قرار بنجدده كل صباح.

قضيا اليوم في ترتيب الحقائب.

ملابس خفيفة وثقيلة، الكتب الصغيرة التي اشتراها أحمد في كل مدينة، علبة دواء أبوللو التي بقيت من مرضه في مدريد، والصورة القديمة لعبد الناصر التي ما زال يطويها في جيبه الداخلي منذ القاهرة. سلاف راجعت جوازاتها الثلاثة: السوري والمصري وجواز القطّ. وضعتهما جنباً إلى جنب على السرير كما اعتادت منذ دمشق، ونظرت إليهما لحظةً صامتة.

في الظهيرة نزلا إلى الساحة لآخر مرة. مشيا ببطء بين الحجاج والسياح وبائعي الماء، ثم عادا إلى الفندق دون أن يشتريا شيئاً. كان الصمت بينهما مريحاً هذه المرة، لا خانقاً.

الليلة الأخيرة في مراكش كانت هادئةً ومكثفة في آن.

بعد أن تعشّيا وأغلقا الباب، لم يشاهدا شيئاً على الحاسوب. جلسا على السرير وأبوللو بينهما، ثم أزاحا القطّ برفقٍ إلى وسادته الخاصة. جاء الجسد إلى الجسد هذه المرة ببطءٍ متعمد، كأنّهما يريدان أن يتذكرا كل مكانٍ مرا به منذ اليونان. سلاف قالت وهو يقبل عنقها:

ـ كل مدينة سافرناها... سافرها جسدينا كمان.

فأيدّها أحمد دون كلام، وواصل. كان الإيقاع عميقاً وطويلاً، أقرب إلى ما كانا عليه في ربيع سنتهما الأولى مما كانا عليه في ليالي الشراهة الحادة. بعد أن هدآ، بقيت رأسها على صدره وقتاً طويلاً. قالت:

ـ بكره نطير. أمريكا وأبعد.

فأجاب وهو يمرّر أصابعه في شعرها:

ـ وإحنا هنطير بالاتفاق معانا. مش هنسيبه على أرض المتوسط.

في الصباح الباكر حمل أحمد حاملة القطّ، وسلاف راجعت الغرفة مرةً أخيرة. قبل أن يغلقا الباب، وقف أحمد عند النافذة ونظر إلى مراكش تحت الشمس الجديدة. همس لنفسه:

ـ شكراً... على كل الإمبراطوريات اللي فتحت لنا دفاترها.

في المطار جلسا في صالة الانتظار وأبوللو نائم في حاملته. أخرج أحمد الدفتر وكتب صفحةً أخيرة قبل الإقلاع:

«انتهى المتوسط. بدأ المحيط. الاتفاق ما زال قائماً. نحن في سنة ألفين وعشرة، والصيف لم ينتهِ بعد».

ثم طوى الدفتر ووضعه بجانب الجوازين في الحقيبة اليدوية.

حين أقلعت الطائرة، أمسكت سلاف يده بقوة كما أمسكتها حين أقلعت من دمشق قبل سنة ونصف. نظرت من النافذة إلى الأرض المغربية وهي تصغر، وقالت بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

ـ وداعاً يا متوسط.

فضغط أحمد على يدها وردّ:

ـ مش وداع نهائي. مجرد انتقال إلى صفحة تانية من نفس السنة.

أبوللو مواء مواءً خفيفاً من الحاملة وهو يشعر بارتفاع الطائرة، ثم عاد إلى نومه.

تحتهم كان المتوسط ينطوي تدريجياً بكل جزره ومدنه وإمبراطورياته القديمة.

أما هما، مع قطّهما السيامي ودفاتر أحمد وجوازاتهما الثلاثة، فكانا يعبران إلى المحيط... حاملين معهما الاتفاق الذي يحاولان أن يعيشا داخله كأنّ الخريف الأسود لم يبدأ بعد.

الفصل التاسع عشر

من رواية «المصري الأخير»

هبطت الطائرة في مطار جون ف. كينيدي صباح يومٍ رماديٍّ رطب.

أحمد وسلاف خرجا إلى الهواء الأمريكي لأول مرة، وأبوللو في الحاملة يموء محتجاً على البرد الخفيف. قالت سلاف وهي تشدّ معطفها:

ـ وصلنا القارة الجديدة.

فأجاب أحمد وهو يضبط حزام الحاملة:

ـ وإحنا لسه في ألفين وعشرة. مفيش ربيع أمريكي ولا خريف عربي... في صيفنا إحنا.

نيويورك كانت أكبر وأعلى وأكثر ضجيجاً مما تخيل أي منهما.

تجوّلا في مانهاتن ساعاتٍ طويلة في اليوم الأول: الشوارع العريضة، ناطحات السحاب، سنترال بارك، وجسر بروكلين. أحمد كان يرفع رأسه كثيراً وينظر إلى المباني كأنّه يقيس المسافة بين الأرض والسماء. سلاف كانت تبتسم أكثر مما ابتسمت في الأسابيع الأخيرة، وتلتقط صوراً كثيرة بهاتفها.

في المساء جلسا في مطعمٍ صغير في الحي الغربي، وأبوللو نائم في الغرفة الفندقية بانتظار عودتهما. قال أحمد وهو يقطع اللحم:

ـ البلد دي بتكلم عن الحرية والديمقراطية طول الوقت... وفي نفس الوقت كانت بتساعد اللي دمّروا الجمهوريات بتاعتنا.

فسلاف نظرت إليه وهزت رأسها:

ـ عرفنا ده من زمان. بس الاتفاق يقول إننا مش هنفتح الملف دلوقتي.

أحمد طوى الموضوع مع المنديل، لكنّه أخرج دفتره لاحقاً في الغرفة وكتب بضع جمل حادة عن التناقض بين الخطاب الليبرالي والدعم العملي للجماعات التي قتلت القذافي وحوّلت سوريا إلى ساحة حرب. ثم أغلق الدفتر ووضع فوقه جواز سفره كأنّه يختم الصفحة.

ليالي نيويورك كانت طويلة ومضيئة.

الغرفة في الطابق العشرين تطل على نهر الهودسون، والأضواء لا تنطفئ. بعد أن يعودا من التجوال، كانا يشاهدان أحياناً على الحاسوب مشاهد جديدة أو قديمة، ثم ينتقلان إلى بعضهما بفضولٍ متجدد. سلاف صارت تطلب تفاصيل أدق، وأحمد صار يجرب معها إيقاعات ووضعيات لم يفعلاها بهذا القدر من التركيز من قبل. الجسد هنا كان يبدو أكثر تحرراً من رقابة المدن القديمة. بعد أن يهدآ، كان أبوللو يقفز على السرير ويبحث عن مكانٍ دافئ بين ساقيهما أو خلف ظهر أحدهما.

من نيويورك انطلقا إلى واشنطن.

المدينة الرسمية الواسعة ذات الحدائق والمتاحف. زارا المتحف الوطني للطيران والفضاء، ومشيرا أمام البيت الأبيض من بعيد، وجلسا على العشب في الناشونال مول. أحمد كان أكثر صمتاً. قال مرةً واحدة وهو ينظر إلى مبنى الكابيتول:

ـ هنا بتتعمل القرارات الكبيرة... بما فيها القرارات اللي خلت الربيع خريفاً.

فسلاف أمسكت يده وقالت بهدوء صارم:

ـ أحمد... الاتفاق.

فابتسم ابتسامةً قصيرة وطوى الكلام.

في الليلة الواشنطنية كان الجسد هو الرد الوحيد على الصمت السياسي.

جاءا إلى بعضهما بشراهةٍ هادئة وعميقة في آن. سلاف همست وهو فوقها:

ـ هنا كمان بنعمل عالمنا الصغير.

فأيدّها أحمد بحركةٍ أبطأ وأكثر امتلاءً.

ثم الساحل الغربي.

الطائرة الداخلية حملتهما إلى سان فرانسيسكو أولاً. المدينة كانت تلالاً وضباباً وجسوراً حمراء. مشيا على جسر البوابة الذهبية، وجلسا في حديقةٍ تطل على الخليج. سلاف اكتشفت هنا متعةً جديدة: الطبيعة الأمريكية الواسعة والمفتوحة. قالت وهي تترك الريح ترفع شعرها:

ـ الهواء هنا مختلف. واسع.

فأيدّها أحمد، وكتب في دفتره لاحقاً أنّ المساحات الكبيرة قد تمنح الإنسان وهماً بالحرية حتى وهو يعيش داخل تناقضاتٍ كبيرة.

من سان فرانسيسكو انطلقا جنوباً إلى لوس أنجلوس ثم شمالاً قليلاً إلى مناطق أكثر هدوءاً وطبيعة. قضيا أياماً بين الغابات الساحلية والشواطئ الطويلة. أبوللو أُخرج من الحاملة أكثر من مرة ليمشي على العشب أو الرمل بحزامه الرفيع، وكان يبدو سعيداً بالفضاء الجديد.

ليالي الساحل الغربي صارت أكثر استرخاءً وتنوعاً.

في أحيانٍ كثيرة كانا يجلسان عاريين أمام النافذة المفتوحة على المحيط، يشاهدان الأفق، ثم ينتقلان إلى السرير دون حاجة إلى شاشات. الشراهة هنا كانت أقل حدةً وأكثر امتناناً، كأنّ المساحة الكبيرة علّمتهما أن يتمهلا. بعد أن يهدآ، كانت سلاف تضع رأسها على بطنه وتقول أحياناً:

ـ أمريكا واسعة أوي... ومع ذلك إحنا لسه لاقيين بعضنا جواها.

فيردّ أحمد وهو يلمس شعرها:

ـ لأننا جابين اتفاقنا معانا. مش مستنيين البلد تخلقه لنا.

في الليلة الأخيرة قبل مغادرة الولايات المتحدة، جلسا على شرفةٍ تطل على المحيط الهادئ. أخرج أحمد الدفتر وراجع ما كتبه منذ نيويورك. قال:

ـ البلد دي مليانة تناقضات. بتبيع الحرية وبتموّل أحياناً اللي بيقتلها في أماكن تانية.

فسلاف أخذت الدفتر من يده وأغلقته برفق:

ـ وكتبنا اللي نفسنا نكتبه. دلوقتي نقفله. الاتفاق لسه حي.

أبوللو قفز إلى حجرها ومدّ مخالبه، فضحكا معاً للمرة الأولى منذ أيام.

وهكذا انتهت الولايات المتحدة.

نيويورك علّمتهما الضجيج والتناقض، وواشنطن الصمت الرسمي، والساحل الغربي المساحة والهواء. الجسد كان قد سافر معهما في كل مدينة، والدفاتر امتلأت بملاحظاتٍ حادة طُويت تحت الاتفاق.

وغداً كانت كندا تنتظر... الغابات والثلج المحتمل، والمنزل الذي بدأ يخطر على بالهما كإمكانيةٍ بعيدة في كولومبيا البريطانية.

الفصل العشرون

من رواية «المصري الأخير»

عبرت الطائرة الحدود شمالاً في صباحٍ باردٍ صافٍ.

هبطت في تورونتو أولاً. المدينة كانت واسعة ومنظمة وأنظف مما اعتادا عليه في نيويورك. خرجا إلى الهواء الكندي وأبوللو في الحاملة يرتعش قليلاً من البرد. قالت سلاف وهي تشدّ معطفها أكثر:

ـ الهواء هنا أبرد... وأنظف.

فأجاب أحمد وهو يبتسم لأول مرة منذ أيام:

ـ وإحنا لسه في ألفين وعشرة. الصيف بتاعنا لسه ما استسلمش للخريف.

تورونتو استقبلتهما بهدوءٍ نسبي.

تجوّلا في وسط المدينة، ومشيا على ضفاف البحيرة، وصعدا إلى البرج العالي ونظرا إلى الأفق المسطح. أحمد شعر بشيءٍ يشبه الراحة لأول مرة منذ غادروا المتوسط. قال وهو يكتب في دفتره لاحقاً:

«المدن التي لا تصرخ كثيراً تمنح الإنسان مساحة ليسمع نفسه».

سلاف وافقته بصمت وهي تضع رأسها على كتفه في المساء.

ليالي تورونتو كانت باردة من الخارج ودافئة جداً من الداخل.

الغرفة في الفندق كانت تطل على البحيرة، والمدينة تضيء بهدوء. بعد أن يعودا من التجوال، كانا يجلسان أحياناً أمام النافذة يتحدثان بصوتٍ منخفض عن الرحلة كلها، ثم ينتقلان إلى السرير. الشراهة هنا جاءت أكثر هدوءاً وعمقاً، كأنّ البرد الخارجي يدفعهما إلى البحث عن حرارةٍ داخلية أطول أمداً. أبوللو كان ينام تحت الغطاء عند أقدامهما، ويرفض الخروج من الدفء.

بعد أيامٍ قليلة انطلقا غرباً نحو فانكوفر.

الطائرة حلقت فوق السهول ثم الجبال، وسلاف ظلت تنظر من النافذة طوال الرحلة تقريباً. حين هبطت الطائرة قالت:

ـ الجبال دي... شبه اللي شفناه في سوريا من بعيد، بس أخضر أكتر.

فأيدّها أحمد.

فانكوفر كانت المدينة التي انتظراها دون أن يعرفا.

المحيط من جهة، والجبال المغطاة بالثلج من جهةٍ أخرى، والغابات الكثيفة تحيط بكل شيء. مشيا في ستانلي بارك ساعاتٍ طويلة، وأبوللو أُخرج من الحاملة ومشى على العشب الأخضر بحزامه الرفيع. في أحد الأيام قررا الصعود إلى الجبال القريبة. استأجرا سيارةً صغيرة وصعدا طريقها المتعرج حتى وصلا إلى منطقةٍ ثلجية.

هناك حدث ما لم يتوقعاه.

أحمد فتح الحاملة بحذر، ووضع أبوللو على الثلج لأول مرة في حياته. القطّ السيامي وقف لحظةً مذهولاً، ثم خطا خطوةً مترددة، ثم أخرى، ثم ركض فجأةً خطواتٍ قصيرة وزلقت قدماه فسقط على جنبه. قاما معاً يضحكان ضحكةً عاليةً وحقيقية، هي الأولى منذ شهور طويلة. سلاف حملت أبوللو وهي لا تزال تضحك وقالت:

ـ هو كمان جرب الثلج قبلنا.

فأحمد مسح الثلج عن قدمه وقال:

ـ ولا مرة كان مبسوط كده.

في المساء عادا إلى الفندق المطل على الجبال.

جلسا على الشرفة الملفوفة بالزجاج، والثلج يلمع تحت الأضواء البعيدة. قالت سلاف فجأة وهي تحدّق في الأفق:

ـ هنا ممكن نعيش... لو حبينا نستقر يوماً.

فنظر أحمد إليها طويلاً قبل أن يجيب:

ـ فكرة. مش قرار دلوقتي... بس فكرة حلوة. كولومبيا البريطانية هادية وواسعة، وبعيدة عن الضجيج اللي سيبناه ورايا.

أحمد أخرج دفتره وكتب في الصفحة الجديدة:

«فانكوفر. الجبال. الثلج. القط ركض. وفكرة منزلٍ مستقبلي بدأت تنبت».

ثم أغلق الدفتر وتركه على الطاولة.

تلك الليلة كانت مختلفة.

بعد أن نام أبوللو في ركنه الدافئ، جاءا إلى بعضهما ببطءٍ أكبر من المعتاد. لم تكن هناك شراهة حادة هذه المرة، بل امتنان هادئ وطويل. سلاف همست وهو يقبل كتفيها:

ـ لو سكنّا هنا يوماً... هنفتكر الليلة دي.

فأيدّها أحمد بحركةٍ أعمق وأبطأ، كأنّه يوقع على اتفاقٍ جديد داخل الاتفاق القديم.

في الأيام التالية تجوّلا أكثر في المنطقة: غاباتٍ أقدم، بحيراتٍ صغيرة، طرقٍ جبلية. أبوللو صار يخرج أكثر، ويمشي على الثلج بثقةٍ متزايدة، ويعود إلى الحاملة حين يتعب. أحمد وسلاف شعرا أنّ شيئاً جديداً قد انضاف إلى رحلتهما: ليس مجرد زيارة، بل احتمال مكانٍ يمكن أن يعودا إليه لاحقاً حين يتعبان من الطيران المستمر.

في الليلة الأخيرة قبل مغادرة كولومبيا البريطانية، جلسا أمام المدفأة في غرفةٍ ريفية صغيرة استأجراها ليومين. أبوللو نائم على السجادة أمام النار. قالت سلاف:

ـ كندا دي... أعطتنا هدية.

فأجاب أحمد وهو يمدّ يده إلى النار:

ـ الهدوء... وفكرة المنزل. وهنستحملهم معانا لباقي الرحلة.

ضغطت على يده، ونظرا معاً إلى اللهب.

الاتفاق كان ما زال قائماً: هما في سنة ألفين وعشرة. لكنّ فكرةً جديدة كانت قد نبتت في أرضٍ باردة وخضراء وبعيدة... فكرة منزلٍ في كولومبيا البريطانية قد يصبح، يوماً ما، أكثر من مجرد فكرة.

وغداً كانت القارة ستستمر جنوباً... نحو المكسيك وما بعدها، حاملةً معهما الدفاتر والقطّ والاتفاق... وبذرة المنزل المستقبلي التي زرعاها في الثلج.

الفصل الحادي والعشرون

من رواية «المصري الأخير»

غادرا فانكوفر في صباحٍ ضبابي، والطائرة تتجه جنوباً.

بعد ساعاتٍ هبطت في مكسيكو سيتي. الهواء كان أرقّ وأدفأ، والمدينة هائلة ومزدحمة وتتنفس بصخبٍ مختلف عن صخب نيويورك. أبوللو تحرك داخل الحاملة كأنّه يشعر بتغيّر الارتفاع والحرارة. قالت سلاف وهي تخرج إلى الشمس المكسيكية:

ـ رجعنا للحر.

فابتسم أحمد:

ـ وإحنا لسه في صيف ألفين وعشرة.

مكسيكو سيتي استقبلتهما بألوانها الحادة ورائحتها المختلطة.

في اليوم الأول زارا المتحف الوطني للأنثروبولوجيا. وقفا ساعاتٍ طويلة أمام قناع الموت لباكال، وأمام التقويم الأزتكي الهائل، وأمام تماثيل الآلهة المتعددة الرؤوس والأيدي. سلاف همست وهي تنظر إلى تمثال كواتليكي:

ـ آلهة كتير... زي مصر القديمة. مش إله واحد بيغار.

فأيدّها أحمد بقوة:

ـ بالضبط. هنا كمان السماء كانت واسعة.

أحمد أخرج دفتره وكتب تحت ضوء القاعة الخافت:

«الأزتك والمايا عرفوا ما عرفه الفراعنة: الكون أكبر من أن يحكمه صوتٌ واحد. التعدد ليس فوضى... إذا كان هناك نظام».

سلاف قرأت الجملة من خلف كتفه ووضعت يدها على يده لحظة.

في ليالي مكسيكو كانت الحرارة عالية والرطوبة عالية والشراهة أعلى.

الغرفة في حيٍّ هادئ نسبياً كانت تطل على فناءٍ داخلي. بعد أن يعودا من المتاحف والأسواق، كانا يخلعان الملابس بسرعة ويبحثان عن بعضهما كأنّ الحرارة الخارجية تنتقل إلى الجلد. الإيقاع كان أسرع وأكثر عرقاً وأنيناً مما كان في كندا الباردة. أبوللو كان يبحث عن أبرد زاوية في الغرفة وينام هناك، تاركاً لهما السرير بالكامل.

من العاصمة انطلقا إلى يوكاتان.

في تشيتشن إيتزا وقفا أمام الهرم الكبير تحت الشمس الحارقة. أحمد قال وهو يمسح جبينه:

ـ هرم تاني... بعد الأهرامات بآلاف الكيلومترات. نفس الفكرة: الصعود إلى السماء عبر الحجر.

فسلاف أمسكت يده والحرارة تلفّهما:

ـ ونفس الشعور إن الزمن دايرة مش خط.

ثم جنوباً أكثر نحو البرازيل.

ريو دي جانيرو كانت صاخبة وجسدية ومفتوحة على البحر. مشيا على شاطئ كوباكابانا في الصباح الباكر، وصعدا إلى تمثال المسيح المطل على المدينة، لكنّهما نظرا إلى البحر والجبال أكثر مما نظرا إلى التمثال. في المساء كانت المدينة تغلي بالموسيقى والأجساد. الشراهة هنا جاءت بلا مقدمات تقريباً؛ الغرفة تطل على البحر، والنافذة مفتوحة، وصوت الأمواج يصل إليهما مع كل حركة. سلاف قالت وهو يدخلها ببطءٍ متعمد:

ـ هنا الجسد مش مخفي. الشارع كله بيعترف بيه.

فأيدّها أحمد بحركةٍ أعمق.

من ريو إلى ساو باولو ثم جنوباً إلى الأرجنتين.

بوينس آيرس كانت أوروبية الملامح وأكثر برودةً نسبياً. تجوّلا في حي لا بوكا الملون، ومشيا في مقبرة ريكوليتا بين التماثيل الرخامية، وجلسا في مقاهٍ قديمة يشربان القهوة. لكنّ المحطة الأهم كانت لاحقاً: الرحلة إلى شمال غرب الأرجنتين ثم إلى بوليفيا وبيرو للوصول إلى آثار الإنكا.

في ماتشو بيتشو، بعد صعودٍ طويل، وقفا أمام المدينة الحجرية المعلقة بين الجبال. الضباب كان يرفع ويهبط كأنّه يتنفس. أحمد قال بصوتٍ مبحوح من الجهد والدهشة:

ـ الإنكا كمان بنوا للآلهة... مش لنبي.

فسلاف كانت تتنفس بصعوبة وهي تبتسم:

ـ وكلهم بيبوا نفس الحاجة اللي بناها المصريون: مكان يقرّب الأرض من السماء من غير ما يلغي واحدة منهما.

في تلك الليلة، في فندقٍ بسيط قرب الآثار، كان الجسد امتداداً للصعود الذي فعلاه نهاراً. جاءا إلى بعضهما ببطءٍ وإرهاقٍ جميل، كأنّ الجبال نفسها تشاركهما. بعد أن هدآ، استلقى أبوللو عند أقدامهما منهكاً من الرحلة، وسلاف همست:

ـ كل حضارة قديمة بنشوفها... بتأكدلنا إننا مش غلط.

فأجاب أحمد وهو يغمض عينيه:

ـ إحنا مش غلط. الغلط في اللي عايز يضيّق السماء على إله واحد ويقتل باسمه.

طوال هذه المرحلة الجنوبية حافظا على الاتفاق قدر الإمكان.

الأخبار كانت تصل أحياناً عبر شاشات في الفنادق أو أحاديث المسافرين: سوريا تشتعل أكثر، مصر تغوص أعمق في استقطابها، ليبيا تتفتت. لكنّهما كانا يعيدان ربط الخيط كل ليلة بالجسد وبالصمت وبملاحظات أحمد التي يطويها في الدفتر.

في الليلة الأخيرة في بوينس آيرس، قبل أن يفكروا في المرحلة التالية، جلسا على سطح الفندق والمدينة تضيء تحتهما. أخرج أحمد الدفتر وكتب:

«المكسيك والبرازيل والأرجنتين. الأزتك والمايا والإنكا. نفس الدرس الذي أخذناه من الفراعنة واليونان والرومان: التعدد ممكن، والسماء واسعة، والجسد ليس خطيئة».

ثم أغلقه ووضعه جانباً.

سلاف أخذت يده وقالت:

ـ خلصنا أمريكا الجنوبية تقريباً.

فابتسم أحمد:

ـ لسه أستراليا وآسيا. وإحنا لسه في ألفين وعشرة... والصيف لسه ما خلاص.

أبوللو رفع رأسه من نومه ونظر إليهما لحظة، ثم عاد ينام.

تحتهم كانت بوينس آيرس تنبض، وخلفهم امتدت قارةٌ كاملة من الآثار والآلهة المتعددة والمدن الحارة والشراهة التي لا تهدأ.

أما هما، مع قطّهما ودفاترهما واتفاقهما، فكانا يستعدان لعبور محيطٍ آخر... حاملين معهم يقيناً أعمق بأنّ السماء التي يؤمنان بها واسعة بما يكفي لكل الآلهة القديمة... ولكل حبٍّ يرفض أن يُختصر في كتابٍ واحد.

الفصل الثاني والعشرون

من رواية «المصري الأخير»

عبرت الطائرة المحيط الهادئ في ليلٍ طويل.

هبطت في سيدني فجر يومٍ ربيعيٍّ أسترالي دافئ. أحمد وسلاف خرجا إلى الهواء الجديد، وأبوللو في الحاملة يحرّك رأسه كأنّه يشمّ قارةً مختلفة تماماً. قالت سلاف وهي تضع نظارتها الشمسية:

ـ آخر قارة كبيرة.

فأجاب أحمد وهو يبتسم بهدوء:

ـ وإحنا لسه ما خرجناش من ألفين وعشرة.

سيدني كانت مشرقة ومفتوحة على البحر.

دارا حول دار الأوبرا، ومشيا على جسر الميناء، وجلسا ساعاتٍ طويلة على شاطئ بوندي يراقبان الأمواج والناس. المدينة كانت تبدو بعيدة عن كل شيءٍ يعرفانه: بعيدة عن القاهرة ودمشق، وبعيدة حتى عن نيويورك وفانكوفر. قال أحمد وهو يكتب في دفتره على الشاطئ:

«العزلة هنا ليست فراغاً... بل مساحة».

سلاف وافقته وهي تدفن قدميها في الرمل.

في الليالي الأولى بسيدني كانت الغرفة تطل على الميناء، والأضواء تنعكس على الماء. الشراهة جاءت هذه المرة مصحوبةً بشعورٍ غريب من الحرية الكاملة. لم يكن هناك تاريخٌ ثقيل يضغط عليهما كما في روما أو

مكسيكو، ولا ضجيجٌ سياسي مباشر. الجسد كان يتحرك في مساحةٍ أوسع، والتجريب عاد بقوةٍ هادئة. بعد أن يهدآ، كان أبوللو يقفز على السرير ويطلب مكانه المعتاد بين جسديهما.

من سيدني انطلقا إلى ملبورن.

المدينة كانت أكثر هدوءاً وثقافيةً، والشوارع مخططة والحدائق واسعة. تجوّلا في الأسواق والأحياء الجانبية، وجلسا في مقاهٍ طويلة يتحدثان قليلاً ويصمتان كثيراً. هنا بدأ التسرب الأوسع للأخبار. في بهو الفندق كانت شاشةٌ كبيرة تبث تقارير عن سوريا: صور لدمارٍ جديد في حلب، وحديث عن تقدم فصائل مسلحة. وفي اليوم التالي جاء خبر عن اشتباكاتٍ إضافية في سيناء ومظاهراتٍ في القاهرة.

أحمد وقف أمام الشاشة دقيقةً كاملة دون أن يتحرك. سلاف جاءت من خلفه وأطفأت الجهاز بيدها. قالت بصوتٍ حازمٍ لكنّه حنون:

ـ مش هنسيبه يركب معانا المصعد.

فأيدّها أحمد بصمت، لكنّ يده كانت ترتجف قليلاً وهو يعود إلى الغرفة.

تلك الليلة حاولا أن يرقّعا الاتفاق بالجسد كالعادة.

جاءا إلى بعضهما بقوةٍ أكبر مما كانت في سيدني، كأنّ الصور التي رأياها تحتاج إلى محوٍ عنيف. بعد أن انتهيا، بقيت سلاف مستلقية على بطنه وقالت:

ـ العزلة هنا مفيدة... بس مش كافية تمنع كل حاجة.

فأجاب أحمد وهو يحدّق في السقف:

ـ عشان كده لازم نعمل حاجة تانية.

في اليوم التالي بدأ أحمد يجمع الأرشيف الرقمي.

اشترى قرصين صلبين صغيرين من محلٍّ إلكترونيات، وبدأ يرتب كل ما كتبه في دفاتره منذ اليونان، وكل الصور التي التقطاها، وكل المقالات التي حفظاها خلسةً على الهاتف عن سوريا ومصر وليبيا. سلاف جلست بجانبه على السرير تساعده في التصنيف. قالت وهي تنقل ملفاً:

ـ دي ذاكرة الرحلة... وذاكرة اللي سيبناه ورايا كمان.

فأيدّها أحمد:

ـ لو حصل حاجة... يبقى في نسخة. مش هيتنسي.

قضيا أياماً إضافية في الطبيعة الأسترالية المتوحشة.

استأجرا سيارةً وذهبا إلى منطقة الجبال الزرقاء، ثم إلى أجزاء من الساحل الجنوبي حيث الصخور تضربها الأمواج بلا رحمة. أبوللو أُخرج مراتٍ عدة ليمشي على العشب الجاف أو الرمل الخشن، وكان يبدو منتبهاً ومتحفزاً أكثر من المعتاد. في أحد الأيام جلسا على صخرةٍ عالية تطل على المحيط اللامتناهي. قال أحمد:

ـ هنا الإنسان يحس إنه صغير... وإن السماء فعلاً واسعة.

فسلاف أضافت:

ـ وواسعة كفاية لآلهة كتير... ولأرشيف صغير بنحفظ فيه اللي بنؤمن بيه.

في الليلة الأخيرة بملبورن، بعد أن أنجز أحمد النسخة الأولى من الأرشيف ووضع القرصين في الحقيبة اليدوية بجانب الجوازين، جلسا على السرير وأبوللو بينهما. سلاف قالت:

ـ الأخبار بقت أقرب.

فأجاب أحمد وهو يمرّر يده على ظهر القطّ:

ـ أقرب... بس الاتفاق لسه موجود. وإحنا لسه بنكتب وبنحب وبنحفظ. مش هنسيب الخريف يمسح الصيف بالكامل.

قبّلها على جبهتها، ثم على فمها قبلةً طويلة وهادئة.

بعدها ناما وأبوللو يخرخر بينهما، والمدينة الأسترالية هادئة في الخارج، والأرشيف الرقمي الجديد ينام في الحقيبة كشاهدٍ صامت على كل ما رأياه وكل ما يرفضان أن ينسياه.

أستراليا كانت قد منحتاهما العزلة المفيدة، والطبيعة المتوحشة، وبداية الذاكرة المنظمة.

أما الأخبار التي تسربت، فقد صارت جزءاً من الوزن الذي يحملانه... وزناً يحاولان أن يوازناه بالجسد وبالدفاتر وبالقرصين الصلبين اللذين سيسافران معهما إلى المرحلة التالية.

وغداً كانت آسيا تنتظر: روسيا والصين ثم الهند واليابان... حيث سيستمر الاتفاق، ويستمر الأرشيف في النمو، ويستمر الخيط الرفيع الذي يربطان به سنة ألفين وعشرة وسط عالمٍ يبتعد عنها أكثر فأكثر.

الفصل الثالث والعشرون

من رواية «المصري الأخير»

غادرت الطائرة ملبورن متجهةً شمالاً غرباً عبر مسافاتٍ هائلة.

بعد توقفٍ قصير في مدينةٍ آسيوية وسطى، هبطت أخيراً في موسكو. الهواء كان بارداً وجافاً، والسماء رمادية منخفضة. أبوللو ارتعش داخل الحاملة ورأسه مختبئ. قالت سلاف وهي تشدّ معطفها الثقيل:

ـ برد تاني.

فأجاب أحمد وهو يبتسم ابتسامةً قصيرة:

ـ برد الإمبراطوريات القديمة. وإحنا لسه في صيفنا إحنا.

موسكو استقبلتهما بساحاتها الواسعة ومبانيها الثقيلة.

في اليوم الأول مشيا في الساحة الحمراء، ووقفا أمام الكرملين طويلاً، ثم أمام ضريح لينين من الخارج. أحمد كان صامتاً أكثر من المعتاد. قال أخيراً وهو ينظر إلى الجدران الحمراء:

ـ هنا كانت فكرة كبيرة... دولة مركزية حاولت تفرض الاشتراكية بقوة. نجحت في حاجات و فشلت في حاجات.

فسلاف أمسكت ذراعه:

ـ وإنت بتعجب بالنجاح ولا بالفشل؟

فأجاب بعد لحظة:

ـ بالقدرة على إن الدولة تفضل واقفة. حتى لو الثمن كان غالي.

في المساء كتب في دفتره داخل الغرفة الفندقية القريبة من النهر:

«موسكو. المركز الذي لم ينهار تماماً. درسٌ في البقاء، مش بالضرورة في الكمال».

ثم نقل الملاحظات إلى القرص الصلب الثاني الذي صار جزءاً من الأرشيف المتنقل.

ليالي موسكو كانت باردة من الخارج ودافئة بشدة من الداخل.

الغرفة كانت تطل على نهر موسكفا، والمدينة تضيء بأضواء صفراء خافتة. الشراهة جاءت هذه المرة مشوبةً بنوعٍ من الجدية. لم تكن هناك ضحكات كثيرة؛ كان هناك إلحاح هادئ وعميق، كأنّ البرد والمدينة الثقيلة يدفعان الجسدين إلى التشبث أحدهما بالآخر بقوةٍ أكبر. بعد أن هدآ، نام أبوللو تحت الغطاء الثقيل عند أقدامهما، رافضاً أي هواء بارد.

من موسكو إلى بكين.

الطائرة عبرت مسافاتٍ إضافية من السهول والغابات. حين هبطت في العاصمة الصينية كان الهواء مختلفاً: أكثر كثافةً ورطوبةً ورائحةً. المدينة كانت هائلة ومنظمة بشكلٍ يخطف الأنفاس. مشيا في الساحة المحرمة، وصعدا إلى سور الصين العظيم في جزءٍ قريب، وجلسا في حديقةٍ تقليدية يشربان الشاي.

أحمد قال وهو ينظر إلى السور الممتد:

ـ دولة عرفت تحافظ على مركزها آلاف السنين... حتى لما تغيرت من جواها.

فسلاف سألته:

ـ وإيه الفرق بينها وبين اللي بتحلم بيه؟

فأجاب بصوتٍ هادئ:

ـ الفرق إن الاشتراكية هنا اتحولت لرأسمالية دولة قوية. نجحت اقتصادياً... بس الفكرة الأصلية اتغيرت. أنا كنت بحلم باشتراكية تحمي الفقير مش بس تبني ناطحات سحاب.

في شانغهاي كان التناقض أوضح.

المدينة الحديثة على ضفة النهر، والأبراج الزجاجية، والضوء الذي لا ينام. وقفا على الممشى المقابل لبودونغ طويلاً. أحمد كتب لاحقاً في الأرشيف:

«شانغهاي. الصين التي تغيرت. القوة بقيت، والمركز بقي، لكن الوجه اختلف. درسٌ في التكيف... وفي الخسارة أيضاً».

سلاف قرأت ما كتب وقالت:

ـ وإنت حزين على الخسارة؟

فأيدّها بهزّة رأس:

ـ حزين على الفكرة اللي كانت ممكنة... وبقت ذكرى.

ليالي بكين وشانغهاي كانت مختلفة عن ليالي موسكو.

الحرارة أعلى، والرطوبة أعلى، والجسد كان يبحث عن تنفيسٍ أسرع. في أحيانٍ كثيرة كانا يعودان من التجوال متعبين فيجدان في الشراهة طريقةً لإفراغ الرأس من المقارنات السياسية. سلاف صارت تطلب بوضوحٍ أكبر في هذه المدن، وأحمد كان يستجيب بطاقةٍ تبدو مستمدة من ضخامة ما يريانه نهاراً. أبوللو كان يبحث عن الزوايا المكيفة وينام هناك ساعاتٍ طويلة.

في إحدى الليالي بشانغهاي، بعد أن انتهيا ونام القطّ، جلسا عاريين أمام النافذة المفتوحة على نهر الهوانغبو. قالت سلاف:

ـ روسيا والصين خلّوكي تفكر أكتر في اللي فات.

فأجاب أحمد وهو يحدّق في الأضواء:

ـ أيوه. لأنهم مثالين على دول قدرت تمسك نفسها. مش مثاليين... بس قادرين. وإحنا شفنا العكس في منطقتنا.

ثم أضاف بعد صمت:

ـ الأرشيف كبر هنا. صور وملاحظات أكتر. لو ضاع مننا حاجة... يبقى في نسخة.

سلاف وضعت رأسها على كتفه وقالت:

ـ الاتفاق لسه شايلنا.

فأيّدها أحمد:

ـ لسه. وإحنا لسه في ألفين وعشرة... حتى لو المدن دي بتذكّرنا إن الزمن مش واقف عند حد.

في الصباح الأخير بشانغهاي راجعا الأرشيف معاً على الحاسوب المحمول الصغير الذي اشترياه في أستراليا. نقل أحمد الملفات الجديدة، وأغلق القرصين بعناية، ووضعهما في الحقيبة اليدوية بجانب الجوازين وصورة ناصر.

روسيا والصين كانتا قد منحتاهما صورةً مركبة: إعجاب بالقدرة على البقاء والمركزية، وحذر من الثمن، وحزنٌ خفي على الاشتراكية التي تحولت أو تجمدت.

أما الاتفاق فكان ما زال يُرقَّع كل ليلة، والأرشيف ينمو، وأبوللو يسافر معهما كشاهدٍ حيٍّ على رحلةٍ تبتعد أكثر فأكثر عن المتوسط... وتقترب أكثر من اللحظة التي سيحتاجان فيها إلى كل ما حفظاه.

وغداً كانت الهند ثم اليابان تنتظران... المرحلة الأخيرة من الطواف الكبير قبل أن يبدأ التفكير في العودة أو الاستقرار.

الفصل الرابع والعشرون

من رواية «المصري الأخير»

غادرت الطائرة شانغهاي متجهةً جنوباً غرباً.

بعد ساعاتٍ هبطت في دلهي. الهواء كان حاراً وكثيفاً ومليئاً بالروائح المختلطة. أبوللو تحرك بقلق داخل الحاملة ورأسه يبرز للحظات ثم يختفي. قالت سلاف وهي تخرج إلى الشمس الهندية القاسية:

ـ آخر محطات الرحلة الكبيرة.

فأجاب أحمد وهو يضبط نظارته:

ـ وإحنا داخلين عليها ونحن ما زلنا في ألفين وعشرة.

دلهي كانت صاخبة ومزدحمة ومتناقضة بشكلٍ يخطف الأنفاس.

في اليوم الأول زارا القلعة الحمراء والمسجد الجامع، ثم ضريح همايون. أحمد كان يراقب الناس أكثر مما يراقب المباني. قال وهو يجلس في ظلٍّ قصير:

ـ هنا تعدد ديني هائل... ومع ذلك الفوضى قريبة من كل حاجة. التعدد لوحده مش كفاية. لازم مركز يمسك.

فسلاف أيدّته وهي تمسح العرق عن جبينها:

ـ زي ما شفنا في الإمبراطوريات اللي حبيناها. التعدد تحت سقف قوي.

في فاراناسي وقفوا على ضفاف الغانج عند الفجر.

النهر كان يمتلئ بالناس والطقوس والنار والماء. سلاف همست وهي تنظر إلى المشهد:

ـ هنا الموت والحياة بيختلطوا قدام عينيك.

فأيدّها أحمد بصمت، وكتب لاحقاً في الأرشيف:

«الغانج. التعدد الذي يصل إلى حد الفوضى المقدسة. درسٌ في الاتساع... وفي غياب الحد».

ليالي دلهي وفاراناسي كانت حارة ورطبة ومليئة بالإلحاح.

الغرف الفندقية كانت مكيفة بشدة، والجسد كان يبحث عن تنفيسٍ سريع من الزحام الخارجي. الشراهة جاءت حادة ومباشرة، أقرب إلى ما كانت عليه في مراكش أو ريو. بعد أن يهدآ، كان أبوللو يبحث عن أبرد مكان في الغرفة وينام هناك ساعات.

من الهند إلى اليابان.

الطائرة عبرت بحر الصين الشرقي وهبطت في طوكيو. التحول كان صادماً في هدوئه. المدينة كانت هائلة لكنها منظمة بشكلٍ يكاد يكون موسيقياً. القطارات تمشي في مواعيدها بالثانية، والناس يتحركون بلا صراخ، والشوارع نظيفة كأنّها تُغسل كل ساعة.

أحمد قال وهو يقف في شيبويا ينظر إلى التقاطع الشهير:

ـ هنا الانضباط بقى جزء من الهواء.

فسلاف أضافت:

ـ والدولة مش ظاهرة بقوة... بس موجودة في كل تفصيلة.

في كيوتو زارا المعابد الحدائق والصخور المرتبة بعناية.

جلسا أمام حديقةٍ يابانية تقليدية ساعاتٍ طويلة دون كلام كثير. أحمد كتب في دفتره ثم في الأرشيف:

«اليابان. الانضباط الذي لا يحتاج إلى صراخ. القوة الهادئة. درسٌ معاكس للهند... ومكمّل له».

سلاف قرأت وقالت:

ـ لو جمعنا اتساع الهند بانضباط اليابان... يبقى قريبين من اللي بنحلم بيه.

ليالي طوكيو وكيوتو كانت مختلفة تماماً عن ليالي الهند.

الهدوء الخارجي انتقل إلى الغرفة. الشراهة جاءت أبطأ وأكثر تركيزاً وتأملاً. في أحيانٍ كثيرة كانا يجلسان عاريين على التاتامي أو على السرير الياباني المنخفض، يتلمسان بعضهما ببطءٍ طويل قبل أن يصل الإيقاع إلى ذروته. أبوللو كان ينام بعمقٍ أكبر في هذه المدن الهادئة، كأنّ الانضباط يريحه أيضاً.

في الليلة الأخيرة بطوكيو، بعد أن أغلقا الأرشيف ونقلا آخر الملفات من الهند واليابان، جلسا على حافة السرير وأبوللو بينهما. قال أحمد:

ـ الرحلة الكبيرة خلصت. من بيرايوس لطيوكيو... مرور بكل القارات تقريباً.

فسلاف أمسكت يده:

ـ وإيه دلوقتي؟ نرجع؟ ولا نفضل مسافرين؟

صمت أحمد قليلاً ثم أجاب:

ـ نرجع جزئياً. القاهرة لسه في القلب، وكولومبيا البريطانية لسه فكرة حية. نعمل استقراراً متنقلاً. شوية هنا وشوية هناك. ونكمل الأرشيف. ونحافظ على الاتفاق قدر ما نقدر.

سلاف وضعت رأسها على كتفه وقالت:

ـ موافقين. وإحنا لسه في ألفين وعشرة... حتى لو السنين الحقيقية عدّت.

قبّلها على شعرها، ثم على فمها قبلةً هادئة وطويلة.

بعدها ناما وأبوللو يخرخر بينهما، وطوكيو تنبض بهدوئها المنظم في الخارج.

الهند منحتاهما صورة التعدد الواسع الذي يقترب من الفوضى، واليابان صورة الانضباط الذي يحمي الاتساع من الانهيار.

أما الرحلة الكبرى فقد انتهت.

خلفهما امتدت سنواتٌ من المدن والآثار والآلهة القديمة والشراهة والدفاتر والأرشيف الرقمي الذي صار أثقل وأهم. وأمامهما كان قرار العودة الجزئية والاستقرار المتنقل... والخيط الرفيع الذي ما زالا يشدّانه كل يوم كي يبقيا، ولو بالوهم الجميل، في سنة ألفين وعشرة.

وغداً كانت الطائرة ستحملهما غرباً مرةً أخرى... نحو القاهرة أولاً، ثم نحو الاحتمال الكندي الذي زرعاه في الثلج قبل شهور.

الفصل الخامس والعشرون

من رواية «المصري الأخير»

هبطت الطائرة في مطار القاهرة في صباحٍ خريفيٍّ مغبر.

أحمد وسلاف خرجا إلى الهواء المصري الذي يعرفانه جيداً، وأبوللو في الحاملة يرفع رأسه كأنّه يشمّ رائحة المكان القديم. قالت سلاف بصوتٍ منخفض:

ـ رجعنا.

فأجاب أحمد وهو يضبط حزام الحاملة:

ـ رجعنا بجسدينا... وبنحاول نرجع بالزمن كمان.

الشقة في المهندسين كانت كما تركاها تقريباً، لكنّها بدت أصغر وأقدم بعد كل المدن التي مرّا بها. فتحا النوافذ، وخرجا أبوللو، ووقف القطّ في وسط الصالة ينظر حوله كأنه يتذكر. أحمد وضع الحقيبة اليدوية على المكتب، وأخرج القرصين الصلبين وصورة ناصر والجوازين، وصفّها بعناية كما اعتاد في كل فندقٍ سابق.

في الأيام الأولى حاولا أن يعيشا الاتفاق بصرامة.

كانا يستيقظان ويتحدثان عن صيف ألفين وعشرة وشتاء سوريا، ويتجاهلان الشاشات قدر الإمكان. لكنّ القاهرة لم تعد تسمح بذلك بسهولة. الشوارع كانت متوترة، والأحاديث في المحلات والمقاهي حادة، واللافتات والوجوه تروي قصةً مختلفة عن التي غادراها قبل الرحلة الطويلة. مرسي كان قد رحل، والمجلس العسكري ثم السلطات الجديدة تمسك بالبلاد، والاستقطاب لم يختفِ بل تغيّر شكله فقط.

ذات مساءٍ جلسا أمام التلفاز دون أن يقصدا.

الصور كانت لمظاهراتٍ قديمة وحديثة، ولخطابات، ولوجوه تعرفانها. أحمد أطفأ الجهاز فجأة وقام يمشي في الصالة. قال بصوتٍ مبحوح:

ـ الاتفاق أصعب هنا. المدينة نفسها بتتكلم ضدّه.

فسلاف جاءت إليه وأمسكت يديه:

ـ عشان كده لازم نرقّعه أكتر. مش نسيبه يتقطع.

في تلك الليلة كان الجسد هو وسيلة الترقيع الوحيدة تقريباً.

جاءا إلى بعضهما بقوةٍ تشبه أيام منتصف ألفين واثني عشر، حين كانت الشراهة تعويضاً عن الخراب الخارجي. بعد أن هدآ، استلقى أبوللو بينهما كالعادة، وسلاف همست:

ـ إحنا رجعنا... بس مصر ما رجعتش لنقطة البداية بتاعتنا.

بعد أسابيع قليلة قررا أن يغيّرا المكان.

الشقة في المهندسين صارت مرتبطةً في ذهنهما بسنوات الحزن الأولى. بحثا عن شقةٍ أوسع في منطقةٍ أقرب إلى القاهرة الفاطمية، وانتهيا إلى شقةٍ قديمة نظيفة في حيٍّ يطل من بعيد على منطقة شارع الصليبية. النقل تم بهدوء. أحمد حمل مكتبه وكتبه وصورة ناصر، وسلاف رتبت المطبخ وغرفة أبوللو الجديدة. حين انتهى اليوم وقفا في الشقة الجديدة ونظرا من الشرفة. قال أحمد:

ـ أقرب للتاريخ القديم. ربما يساعدنا.

فسلاف أيدّته وهي تضع رأسها على كتفه.

الصدمة لم تختفِ مع تغيير العنوان.

كل مرة يخرجان فيها كانا يصطدمان بواقعٍ لم يعد يشبه حلم الناصرية ولا حلم الدولة المركزية القوية التي رأيا ملامحها في موسكو أو بكين. الإخوان كانوا قد انحسروا سياسياً، لكنّ التيار الديني الاجتماعي كان لا يزال حاضراً بقوة، والفضاء العام ضيق، والاقتصاد يضغط على الجميع. أحمد كان يعود أحياناً صامتاً ساعات، ثم يفتح الأرشيف الرقمي ويضيف ملاحظاتٍ جديدة عن «مصر بعد الرحلة».

محاولة الحفاظ على الاتفاق صارت جهداً يومياً واعياً.

في الصباحات كانا يذكران بعضهما: «إحنا في ألفين وعشرة». وفي الليالي كان الجسد يعيد تأكيد ذلك بطريقته. لكنّ التسرب كان أقوى مما كان في أستراليا أو اليابان. الأخبار تدخل من النوافذ ومن المحلات ومن أحاديث الأهل الذين بدآ يزورانهم بحذر.

ذات ليلة، بعد أن انتهيا من الحب ونام أبوللو، قال أحمد وهو يحدّق في سقف الشقة الجديدة:

ـ الرحلة علّمتنا إن في دول بتقدر تمسك نفسها. وهنا... بنحاول نمسك نفسنا إحنا الاتنين.

فسلاف أجابت وهي تلفّ ذراعها حوله:

ـ ونمسك الاتفاق كمان. حتى لو بقى أرفع من خيط.

ضغط على يدها، وظلا صامتين.

خارج الشقة كانت القاهرة تتنفس بصخبها وتوترها وأحزانها الجديدة-القديمة. وداخلهما كان رجلٌ من برج العذراء وامرأةٌ من برج الجوزاء يحاولان، مرةً أخرى، أن يبنيا عالماً صغيراً لا يزال فيه مكانٌ لسنةٍ مضت... ولحبٍّ يرفض أن ينكسر تحت وطأة الواقع الذي عاد ليواجههما وجهاً لوجه.

الفصل السادس والعشرون

من رواية «المصري الأخير»

بعد أشهرٍ متقطعة في القاهرة الجديدة القريبة من شارع الصليبة، شعرا أنّ المدينة تضغط عليهما أكثر مما تحتملان.

ذات مساءٍ قال أحمد وهو يغلق الأرشيف الرقمي:

ـ الفكرة اللي زرعناها في الثلج... آن أوانها.

فسلاف نظرت إليه وعيناها تضيء بشيءٍ من الفضول القديم:

ـ كولومبيا البريطانية؟

فأيدّها برأسه.

تم الأمر بهدوءٍ وسرعة نسبية.

والد سلاف، الذي كان لا يزال يتابع أحوالهما من بعيد، سهّل الإجراءات. استأجرا في البداية منزلاً خشبياً صغيراً على أطراف منطقةٍ هادئة قرب فانكوفر، محاطاً بالأشجار ويطل من طابقه العلوي على خضرةٍ كثيفة وجبلٍ بعيد. حين وصلا إليه في خريفٍ كنديٍّ مبكر، وقف أحمد في الحديقة وأبوللو في حضنه وقال:

ـ هنا نقدر نتنفس.

فسلاف أضافت وهي تفتح الباب الخشبي:

ـ وهنا نقدر نقسم السنة.

صار التقسيم روتيناً جديداً.

أشهر في القاهرة قرب التاريخ القديم والأهل والذاكرة، وأشهر في المنزل الكندي بين الأشجار والبرد النظيف والعزلة المفيدة. أبوللو كان يسافر معهما في كل انتقال، لكنّه بدأ يشيخ بوضوح. صار ينام ساعاتٍ أطول، ويمشي ببطءٍ أكبر، ويرفض القفز إلى الأماكن العالية التي كان يصلها بسهولة من قبل. في كندا كان يقضي معظم وقته أمام المدفأة أو على السجادة المشمسة قرب النافذة. أحمد وسلاف كانا يراقبانه بحنانٍ متزايد، ويمسحان عليه أكثر، ويتحدثان إليه كأنّه يفهم.

في أحد أيام الشتاء الكندي، بينما كان الثلج يسقط ببطء خارج النافذة، فتح أحمد حاسوبه وبدأ التراسل مع أسماء قديمة وجديدة.

كان قد جمع خلال الرحلة عناوين وعلاقات محدودة مع مثقفين علمانيين واشتراكيين منفيين أو صامتين: بعضهم في أوروبا، وبعضهم في أمريكا وكندا نفسها، وبعضهم لا يزال في المنطقة يتكلم بحذر. بدأت الرسائل القصيرة تتحول إلى نقاشاتٍ أطول حول ما يحدث في سوريا ومصر وليبيا، وحول معنى الدولة المركزية، وحول الخريف الذي لا يزال مستمراً.

سلاف كانت تشارك أحياناً، وتقرأ الرسائل بصوتٍ عالٍ، وتضيف ملاحظاتها. قالت ذات مساءٍ بعد أن أغلقا الحاسوب:

ـ بقينا مش لوحدنا تماماً في الرافضين.

فأيدّها أحمد:

ـ شبكة صغيرة... بس موجودة. وبتكبر بهدوء.

اللقاءات جاءت لاحقاً بحذرٍ شديد.

في كندا التقيا مرتين برجلٍ سوريٍّ علماني منفي يعمل في جامعةٍ قريبة، ومرةً واحدة بزوجين مصريين يعيشان في تورونتو منذ سنوات. الأحاديث كانت طويلة وهادئة ومليئة بالمرارة المشتركة والأمل الحذر في أنّ الذاكرة لا تموت إذا وُجد من يحفظها. أحمد كان يعرض أجزاءً من الأرشيف الرقمي أحياناً، فيجد آذاناً مصغية.

المنزل الكندي صار مكاناً للتجميع أيضاً.

في الليالي الطويلة أمام المدفأة كانا يراجعان الملفات، ويضيفان تسجيلاتٍ صوتية قصيرة لأحاديثهما، ويحفظان نسخاً إضافية على أقراصٍ جديدة. أبوللو كان ينام قربهما، شخيره الخفيف يملأ الصمت بين الجمل.

أما الجسد فلم يتراجع.

في القاهرة كان الإيقاع أحياناً حاداً كتعويضٍ عن ضغط الشارع. وفي كندا كان أبطأ وأعمق وأكثر امتناناً للهدوء المحيط. بعد أن يهدآ، كانا يمدان يديهما إلى أبوللو النائم ويمسحان عليه، كأنّ الحب يمتد ليشمل الثلاثة.

ذات ليلةٍ شتوية، والثلج يتراكم خارج النافذة، قال أحمد وهو يحدّق في النار:

ـ التقسيم ده مناسب لنا الآن. القاهرة للجذور... وهنا للتنفس والأرشيف والناس اللي شبهنا.

فسلاف أجابت وهي تضع رأسها على كتفه:

ـ وأبوللو لكبار السن في المكانين.

فضحكا بهدوء، والقطّ حرك أذنيه دون أن يفتح عينيه.

خارج المنزل كانت الغابة الكندية صامتة ومغطاة بالثلج.

وداخله كان رجلٌ وامرأةٌ وقطٌّ سياميٌّ شيخوخته تقترب يبنون روتيناً جديداً: بين مدينتين، وبين زمنين، وبين عزلةٍ مفيدة وشبكةٍ صغيرة من الرافضين الذين يحاولون، مثلهم، أن يحفظوا شيئاً من الصيف القديم وسط خريفٍ لا يزال يرفض أن ينتهي.

الفصل السابع والعشرون

من رواية «المصري الأخير»

في الشتاء الثاني لهما في المنزل الكندي، وأبوللو ينام ساعاتٍ أطول أمام المدفأة، قررا أن يحولا الأرشيف المتناثر إلى شيءٍ أكثر تماسكاً.

ذات مساءٍ قال أحمد وهو يفتح الحاسوب على الطاولة الخشبية:

ـ الدفاتر والملفات كترت. محتاجين نرتبها في نصٍ واحد.

فسلاف جلست إلى جانبه ووضعت يدها على يده:

ـ نسجّل كل حاجة... من أول نظرة في الزمالك لحد دلوقتي. ونسميه «سجل المصري الأخير».

بدأت الكتابة المشتركة.

كانا يتناوبان: أحمد يكتب الفقرات السياسية والتاريخية، وسلاف تضيف التفاصيل الحسية واليومية والحوارات التي تذكرتها بدقة الجوزاء. في الصباحات كانا يراجعان ما كُتب في الليلة السابقة، ويصححان، ويضيفان. الأرشيف الرقمي صار يتغذى يومياً من هذه الصفحات الجديدة، والنسخ تتعدد على الأقراص الصلبة التي صارت ثلاثة ثم أربعة.

مع الكتابة جاء التحليل الأعمق لما كان يحدث في المنطقة بينما هما يطوفان العالم.

جلسا ليالي طويلة أمام الشاشة الصغيرة يتابعان بصمتٍ ثقيل صعود الجولاني في إدلب وما حولها: الرجل الذي خرج من عباءة التنظيمات الجهادية وصار يقدّم نفسه كحاكمٍ أمر واقع، بينما الغرب ينظر ويحسب. أحمد كتب في السجل:

«الجولاني ليس استثناءً. هو النتيجة المنطقية لخريفٍ طويل سُمّي ربيعاً. من يموّل السلاح والحدود المفتوحة يحصد في النهاية من يرتدي البدلة ويتحدث عن الإدارة المدنية بعد أن أغرق الأرض بالدم».

ثم ليبيا.

الصور والأخبار عن الدبيبة ومن يدور في فلكه كانت تعيد إلى أحمد وسلاف مشاهد سقوط القذافي. كتبا معاً:

«ليبيا بعد سرت صارت خريطة مليشيات ومؤتمرات ومالٍ خارجي. الدبيبة ليس سوى وجهٍ ناعم لفوضى مستمرة. الدولة التي أُسقطت لم تُبنَ من جديد... بل قُسّمت».

أما عودة طالبان إلى كابول فقد كانت الصفحة الأثقل.

شاهدا الصور القادمة من أفغانستان في صيفٍ بعيد عنهما، وكتبا في السجل بقلمٍ واحد تقريباً:

«طالبان لم تُهزم. هي انتظرت. والغرب الذي حاربها عشرين سنة سلّمها البلد في نهاية المطاف. درسٌ واضح لمن يريد أن يفتح الأرض للجهاديين ثم يفاجأ حين يحكمون».

الكتابة كانت تثقلهما أحياناً.

في تلك الليالي كان الجسد يتحول تدريجياً إلى طقسٍ مختلف. لم تعد الشراهة الحادة التي عرفاها في منتصف ألفين واثني عشر أو في مدن أمريكا الجنوبية الحارة. صارت أهدى وأعمق وأكثر امتناناً. بعد أن يغلقوا الحاسوب ويطفئوا الأنوار، كانا يأتيان إلى بعضهما ببطءٍ طويل، كأنّ كل لمسةٍ تعيد ترتيب شيءٍ انكسر أثناء الكتابة عن الجولاني والدبيبة وطالبان. سلاف كانت تهمس أحياناً وهو داخلها:

ـ هنا بنكتب حاجة تانية... بالجسد.

فيردّ أحمد بحركةٍ أبطأ وأعمق:

ـ السجل الثاني... اللي مش محتاج كلمات.

أبوللو كان يشارك في الطقس بطريقته.

بعد أن يهدآ كان يقفز ببطءٍ على السرير، يدور دورةً قصيرة، ثم ينام بينهما أو عند أقدامهما، شخيره الخفيف يملأ الصمت الجميل الذي يلي الحب الهادئ.

في أحد الأمسِية، بعد أن أنهيا فصلاً طويلاً عن صعود الجولاني، جلسا أمام المدفأة والثلج يسقط خارج النافذة. أحمد قال:

ـ السجل ده مش بس ذكرياتنا. ده شهادة.

فسلاف أجابت وهي تمسح على رأس أبوللو النائم:

ـ شهادة إن في ناس شافت الخريف من أوله... ورفضت تسميه ربيعاً.

صمتا قليلاً. ثم أضافت:

ـ والجنس بقى طقس زي الكتابة. هدوء... وعمق... واستمرار.

فأيدّها أحمد بقبلةٍ على جبهتها.

خارج المنزل كانت الغابة الكندية تغطى بالثلج مرةً أخرى.

وداخله كان السجل يزداد صفحات، والتحليل يزداد مرارةً ووضوحاً، والجسد يزداد هدوءاً وعمقاً في طقسه الليلي. وأبوللو يشيخ بهدوءٍ بينهما... شاهداً حياً على حبين يكتبان ويرفضان وينامان معاً وسط عالمٍ يبتعد أكثر فأكثر عن الصيف الذي أرادا أن يبقيا فيه.

الفصل الثامن والعشرون

من رواية «المصري الأخير»

في صباحٍ شتويٍّ بارد من سنتهم الثالثة في المنزل الكندي، لم يقم أبوللو من مكانه أمام المدفأة.

سلاف كانت أول من لاحظ. نادت عليه مرتين، ثم لمسته برفق. الجسد كان دافئاً بعد، لكنّه لم يتحرك. نادت أحمد بصوتٍ مكسور:

ـ أحمد... تعال.

جاء من الطابق العلوي، ونظر، وجلس على الأرض بجانب القطّ. وضع يده على جنبه كما كان يفعل حين مرض في مدريد قبل سنوات. لم يكن هناك نبض. ظلّا جالسين هكذا وقتاً طويلاً دون كلام. النار في المدفأة كانت لا تزال مشتعلة، والثلج يسقط خارج النافذة بهدوءٍ قاسٍ.

في الظهيرة حفرا معاً حفرةً صغيرة في الحديقة الخلفية، تحت الشجرة التي كان أبوللو يحب الجلوس في ظلها صيفاً. لفّاه في البطانية التي اعتاد النوم عليها في السنوات الأخيرة، ووضعاه في الحفرة ببطء. سلاف بكت بصمتٍ طوال الوقت، وأحمد ظلّ جاف العينين حتى لحظة تغطية التراب، ثم انحنى ومسح وجهه مرةً واحدة فقط. غرسا فوق القبر علامةً خشبيةً بسيطة كتب عليها أحمد بخطه المرتب:

«أبوللو شوجركين – رفيق الرحلة».

في الأيام التالية كان المنزل فارغاً بطريقةٍ لم يعرفاها من قبل.

المدفأة كانت مشتعلة، لكنّ المكان الذي اعتاد القطّ أن يملأه ظلّ خالياً. في الليل كانا يمدان أيديهما بالخطأ إلى الجانب الذي كان ينام فيه، ثم يسحبانها ببطء. الحزن لم يكن صاخباً؛ كان ثقيلاً وهادئاً ومستمراً مثل الثلج الذي كان يتراكم خارج النوافذ.

في الليلة الثالثة بعد الدفن، بعد أن حاولا أن يحبا بعضهما وفشلا في البداية بسبب الغصة، جلسا عاريين تحت الغطاء وتحدثا أخيراً. قالت سلاف وصوتها خشن:

ـ هو كان معانا من أول المهندسين... من أول ما المساكنة بدأت.

فأيدّها أحمد:

ـ شاف الرحلة كلها. اليونان وروما والثلج والأرشيف. كان الشاهد الثالث.

صمتا. ثم قالت هي:

ـ الموت قرب. مش بس موته هو.

فنظر إليها أحمد طويلاً قبل أن يجيب:

ـ أيوه. وإحنا محتاجين نفكر في الإرث. السجل، والأرشيف، والبيت هنا، والشقة هناك... واللي هيبقى بعدنا.

الحديث عن الموت فتح باباً لم يفتحاه بهذا الوضوح من قبل.

تكلما عن الجسد الذي سيشيخ، عن السجل الذي يجب أن يكتمل، عن النسخ الرقمية التي يجب أن تتوزع على أكثر من مكان، عن احتمال أن يصبح المنزل الكندي يوماً ما أكثر من مجرد ملاذٍ مؤقت. سلاف قالت:

ـ لو حصل لنا حاجة... عايزة الناس تعرف إننا رفضنا الخريف من أوله.

فأيدّها أحمد:

ـ وهيعرفوا. السجل موجود، والشبكة موجودة.

الشبكة كانت قد نمت بهدوء خلال الأشهر السابقة.

بعد موت أبوللو صارت الرسائل أكثر تواتراً وعمقاً. المثقفون المنفيون الذين تواصلوا معهم سابقاً أرسلوا كلمات تعزية قصيرة لكنها صادقة، ثم تحولت التعازي إلى نقاشاتٍ أطول عن الذاكرة والمقاومة الصامتة وضرورة حفظ الشهادات. في أحد اللقاءات الافتراضية قال رجلٌ سوريٌّ منفي في برلين:

ـ القطّ رفيقكم كان جزءاً من شهادتكم. والآن صارت الشهادة أثقل.

فأيدّه أحمد وسلاف دون كلام كثير.

في الأسابيع التالية صارا يخرجان إلى القبر كل صباح تقريباً.

يمسحان الثلج عن العلامة الخشبية، ويقفان دقائق صامتين، ثم يعودان إلى المنزل ليكتبا في السجل أو يضيفا إلى الأرشيف. الجسد عاد تدريجياً إلى طقسه الهادئ والعميق، لكنّه صار يحمل الآن طبقةً إضافية من الحنان والحزن الممتزجين. بعد أن يهدآ كانا يبقيان ملتصقين وقتاً أطول، كأنّ غياب الثالث جعل الاثنين أكثر حاجةً إلى التشبث.

ذات مساءٍ، والثلج يتساقط بكثافة، قال أحمد وهو يحدّق في النار:

ـ أبوللو علّمنا إن الرحلة ليها نهاية. وإن الإرث لازم يتجهز قبل ما النهاية تجي.

فسلاف أجابت وهي تضع رأسها على صدره:

ـ وإن الشبكة مش رفاهية. هي جزء من الحفظ.

خارج المنزل كانت الغابة البيضاء صامتة تماماً.

وداخله كان الحزن قد استقر كضيفٍ دائم لا يُطرد، لكنه صار أيضاً محفزاً: للكتابة أكثر، للتواصل أكثر، وللتفكير في ما سيبقى بعد أن يرحل المصري الأخير والسورية التي أحبته... كما رحل القطّ السيامي الذي سافر معهما منذ البداية حتى النهاية الهادئة تحت الشجرة الكندية.

الفصل التاسع والعشرون

من رواية «المصري الأخير»

بعد رحيل أبوللو لم تتقلص الشبكة... بل اتسعت.

الرسائل التي كانت تأتي في السابق من مثقفين عرب منفيين بدأت تصل الآن من أسماء أخرى: عالم سياسة ألماني كان يراقب صعود التيارات الإسلامية في الضواحي الأوروبية، ومهندسة كندية من أصلٍ شرق أوسطي تعمل في مجال الأمن السيبراني، ومؤرخ فرنسي متخصص في الإمبراطوريات المنهارة، وشابّة أمريكية تدرس حركات الإسلام السياسي في الجامعات. كلهم كانوا يشاركون القلق نفسه الذي يحمله أحمد وسلاف منذ سنوات: أنّ الخريف لم يعد محصوراً في دمشق وطرابلس والقاهرة... بل صار يمدّ جذوره داخل الغرب نفسه.

في أحد اللقاءات الافتراضية الطويلة، قال العالم الألماني بصوتٍ هادئ:

ـ نحن نرى في برلين وباريس وبروكسل ما رأيتموه أنتم في 2011. نفس الخطاب، نفس التمويل غير المباشر، نفس التردد الرسمي في المواجهة.

فأيدّه أحمد من المنزل الكندي:

ـ الفرق إن الغرب كان يظن أنه يصدّر الفوضى... فإذا الفوضى تعود إليه.

سلاف كانت تجلس إلى جانب أحمد، وتضيف أحياناً ملاحظاتٍ دقيقة عن التفاصيل التي عاشتها في سوريا قبل العاصفة. صارا، دون أن يسعيا إلى ذلك، مرجعين صامتين داخل هذه الدائرة الصغيرة. حين يختلف أحدهم في تحليل صعود الجولاني أو في تقييم ما يحدث في الساحل الليبي أو في قراءة عودة طالبان، كان أحدهم يقول:

ـ نسأل المصري والسورية... هما شافا البداية بعيونهما.

الأرشيف الرقمي صار يُستشار.

أحمد كان يرسل مقتطفاتٍ مختارة من «سجل المصري الأخير» بعد أن يتأكد أنّ القناة آمنة. المقتطفات كانت تُقرأ وتُناقش، ثم تُحفظ عند الآخرين كنسخٍ إضافية. المهندسة الكندية اقترحت نظام نسخٍ موزع أكثر تعقيداً، وبدأت في تطبيقه بهدوء. المؤرخ الفرنسي كتب مرةً في رسالة خاصة:

«أنتم لستم مجرد شاهدين. أنتم الذاكرة الحية للحظة التي أُسيء تسميتها ربيعاً».

اللقاءات لم تعد افتراضية فقط.

في صيفٍ لاحق استضافا في المنزل الكندي رجلين من الشبكة: السوري المنفي الذي يسكن في برلين، والمهندسة الكندية. جلسا أربعة أيامٍ كاملة أمام المدفأة وفي الحديقة قرب قبر أبوللو، يتحدثون عن كل شيء: عن إدلب، عن طرابلس، عن الضواحي الأوروبية، عن الجامعات الغربية التي صارت أحياناً منصاتٍ للخطاب نفسه الذي دمّر الجمهوريات. في الليلة الأخيرة قال السوري وهو ينظر إلى العلامة الخشبية في الحديقة:

ـ القطّ رحل... بس الشهادة كبرت.

فأيدّه الجميع بصمت.

داخل البيت، بين لقاءٍ وآخر، استمر الطقس الليلي الهادئ.

الجسد كان ما زال حاضرًا بقوة، لكنه صار أكثر ارتباطاً بالإحساس بالزمن والإرث. بعد أن ينتهيا، كانا يبقيان مستيقظين أحياناً ويتحدثان همساً عن الشبكة، عن الأسماء الجديدة، عن الخوف المشترك من أنّ الغرب قد يستيقظ متأخراً جداً. سلاف قالت مرةً وهو يمسكها من الخلف:

ـ بقينا جزء من حاجة أكبر منا.

فأيدّها أحمد:

ـ وأكبر من الرحلة كمان. الرحلة كانت هروب وتنفس... دلوقتي بقينا بنحفظ وننبّه.

في أحد الأمسِية، بعد مكالمةٍ طويلة مع ثلاثة من أعضاء الشبكة، أغلق أحمد الحاسوب وجلس بجانب سلاف على السجادة أمام المدفأة. قال:

ـ هم قلقانين من تمدد الإسلام السياسي جوا الغرب نفسه. مش بس من اللي بيحصل عندنا.

فسلاف أجابت وهي تحدّق في النار:

ـ عشان كده بيبصوا لنا. لأننا شفنا الثمن بدري.

صمتا. ثم أضاف أحمد:

ـ المرجعية دي مش مريحة دايماً... بس ضرورية. لو سكتنا إحنا كمان، مفيش حد هيفتكر إن في ناس رفضت من الأول.

خارج المنزل كانت أشجار كولومبيا البريطانية تتحرك مع الريح الخفيفة.

وداخله كانت الشبكة تتسع بهدوء، والتحليل يزداد حدةً ودقة، وأحمد وسلاف يتحولان تدريجياً من مسافرين هاربين إلى مرجعين صامتين لذاكرةٍ لا يريد أحدٌ أن يحملها وحده. والجسد كان يظل، كل ليلة، هو المساحة الأخيرة التي يتأكدون فيها أنهما ما زالا معاً... وما زالا يرفضان... وما زالا يحفظان.

الفصل الثلاثون

من رواية «المصري الأخير»

في السنة التي تلت توسع الشبكة، بدأت التقارير تصل بكثافةٍ مختلفة.

لم تعد الأخبار عن إدلب أو طرابلس أو كابول فقط. صارت تأتي من ضواحي باريس وبروكسل وبرلين، من أحياءٍ في لندن ومانشستر، من جامعاتٍ أمريكية وكندية، من شبكات تمويل وتنظيم بدت فجأةً أقرب مما كان أحد يتصور.

أحمد وسلاف كانا يتابعان من المنزل الكندي في معظم الأحيان، وأحياناً من الشقة القريبة من شارع الصليبة. الشاشة الصغيرة التي اعتادا إطفاءها في السنوات الأولى صارت تُفتح الآن يومياً، لكن بحذرٍ وضمن دائرة الشبكة فقط. المهندسة الكندية كانت ترسل ملخصاتٍ مشفرة، والعالم الألماني يعلق بتحليلاتٍ قصيرة حادة، والمؤرخ الفرنسي يضع الأحداث في سياقٍ أطول.

الحوادث كانت تتصاعد.

هجومٌ هنا، وتجنيدٌ هناك، وخطابٌ يتحدث عن «الخلافة القادمة» في مسجدٍ أوروبي معروف، وشبكات تحويل أموال تربط بين مناطق سيطرة الجولاني وبقايا التنظيمات في ليبيا وأفغانستان وبين خلايا نائمة أو نشطة داخل الغرب. أسماء كانت تُذكر سابقاً في تقارير استخباراتية بعيدة صارت تظهر في عناوين الصحف المحلية الأوروبية والأمريكية. الدبيبة ومن يشبهه كانوا يُقدَّمون أحياناً كمحاورين سياسيين، بينما السلاح والمال يستمران في التدفق تحت الطاولة.

في أحد اللقاءات الافتراضية قال السوري المنفي في برلين بصوتٍ مبحوح:

ـ هم كانوا يصدّرون الفوضى إلينا... والآن الفوضى بدأت تعود إليهم بوجهٍ محلي.

فأيّده أحمد:

ـ الجولاني صار نموذجاً. طالبان صارت مثالاً ناجحاً في الصبر والعودة. والليبيون المتقاتلون صاروا سوقاً مفتوحاً للسلاح والمرتزقة. الغرب اكتشف متأخراً إن النار ما بتموتش عند الحدود.

سلاف أضافت بهدوء:

ـ وإحنا شفنا الشرارة من أولها. دلوقتي بنشوف الدخان وصل لبيوتهم.

القلق داخل الشبكة تحول إلى شعورٍ بالخطر الوجودي.

لم يعد الأمر مجرد تضامن مع جمهورياتٍ منهارة في الشرق الأوسط. صار حديثاً عن تماسك المؤسسات الغربية نفسها: عن الشرطة التي تتردد، عن الجامعات التي تخشى الكلام، عن السياسيين الذين يحسبون الأصوات قبل المبادئ، عن الإعلام الذي يختار كلماته بعنايةٍ مفرطة كي لا يُتهم. العالم الألماني كتب في رسالةٍ جماعية:

«نحن نواجه الآن السؤال الذي واجهتموه أنتم في 2011: هل الدولة مستعدة للدفاع عن نفسها أم أنها ستتفاوض مع من يريد إلغاءها؟»

أحمد وسلاف شعرا بثقلٍ جديد.

المرجعية الصامتة التي اكتسباها صارت أثقل. الناس داخل الشبكة كانت تطلب رأيهما في كل تطورٍ جديد: كيف يقرأون خطاب الجولاني الأخير؟ كيف يفسرون التقارب بين بعض الميلشيات الليبية وشبكات أفغانية؟ هل

طالبان تقدّم نموذجاً قابلاً للتصدير بهدوء؟ كانا يجيبان بحذر، ويستندان دائماً إلى ما عاشاه وما حفظاه في السجل.

داخل المنزل، بين تقريرٍ وآخر، استمر الطقس الليلي.

لكنّه صار محمّلاً بطبقةٍ إضافية من القلق. بعد أن ينتهيا من الحب الهادئ العميق، كانا يبقيان مستيقظين أحياناً ويتحدثان همساً عن الاحتمالات. قالت سلاف مرةً وهي تلفّ ذراعها حول كتفه:

ـ لو الغرب حسّ بالخطر الحقيقي... ممكن يعمل حاجة جذرية.

فأجاب أحمد وهو يحدّق في السقف:

ـ ممكن. والسؤال: إيه هي الحاجة الجذرية؟ وإحنا فين منها؟

في الأسابيع التالية تواصلت الحوادث.

اعتقالاتٌ هنا، وتفجيرٌ فاشل هناك، وتقريرٌ برلماني أوروبي يتحدث عن «تهديد هجين»، وخطابٌ أمريكي رسمي يبدأ في استخدام كلماتٍ كانت محرمةً قبل سنوات. الشبكة كانت تراقب وتحلل وتحفظ. أحمد أضاف فصولاً جديدة إلى «سجل المصري الأخير»، وسلاف كانت تراجع معه كل جملةٍ مرتين قبل أن تُنسخ إلى الأقراص الموزعة.

ذات مساءٍ، بعد مكالمةٍ طويلة انتهت بصمتٍ ثقيل، جلسا أمام المدفأة. قال أحمد:

ـ الخطر بقى وجودي بالنسبة لهم كمان. مش بس بالنسبة لنا.

فسلاف أجابت وهي تمسك يده:

ـ عشان كده إحنا هنا. بنشهد... وبنحفظ... وبنستنى نشوف إيه اللي هيقرروا يعمله لما الخوف يوصل للقرار.

خارج المنزل كانت غابة كولومبيا البريطانية مظلمة وهادئة.

وداخله كان الشعور بالتصاعد يملأ الهواء: حوادث، نفوذ، شبكات، وغربٌ يبدأ أخيراً في الإحساس بأنّ تماسكه ومؤسساته ليسا في مأمن. وأحمد وسلاف، المصري الأخير والسورية التي أحبته، كانا يجلسان في قلب الشبكة الصغيرة... يراقبان كيف يعود الدخان الذي خرج من سرت وحلب وإدلب ليطرق أبواب المدن التي كانت تظن نفسها بعيدةً عن الحريق.

الفصل الحادي والثلاثون

من رواية «المصري الأخير»

في الأشهر التي تلت تصاعد الحوادث، بدأ شيءٌ يتغير في اللغة الرسمية الغربية.

لم تعد الكلمات تدور حول «التطرف» أو «الإرهاب الفردي» فقط. صارت تظهر عباراتٌ أثقل: «تهديد هجين للنظام»، «اختراق مؤسسات»، «خطر وجودي على التماسك الاجتماعي». أحمد وسلاف كانا يقرآن الملخصات المشفرة التي تصل من الشبكة، ويشعران أنّ الخوف الذي عرفاه منذ 2011 قد وصل أخيراً إلى العواصم التي كانت تظن نفسها بمنأى.

ثم جاءت الإشارة الأولى إلى اللجان.

في رسالةٍ قصيرة من العالم الألماني، كُتبت بجملٍ حذرة جداً:

«تتشكل دوائر مغلقة. ليست برلمانية. ليست إعلامية. أناس من الأمن والعلم والسياسة القديمة. يتحدثون عن خيارات لم تكن مطروحة من قبل».

أحمد قرأ الرسالة مرتين، ثم سلم الحاسوب إلى سلاف. صمتا طويلاً أمام الشاشة. قالت هي أخيراً:

ـ لجان طوارئ سرية.

فأيدّها أحمد برأسه:

ـ ولما السرية بتوصل لهالمستوى... يبقى الحلول اللي بيتناقشوا فيها مش عادية.

خلال الأسابيع التالية تسربت معلوماتٌ محدودة جداً إلى دائرتهم الصغيرة.

ليس تفاصيل تقنية، ولا أسماء، بل إشارات: اجتماعات في أماكن غير معلنة، مشاركة علماء أعصاب ومهندسين متخصصين في تقنيات التأثير الجماعي، وأحاديث عن «إعادة ضبط» أو «تصفير القدرة على التنظيم الأيديولوجي المعقد». المهندسة الكندية كتبت مرةً:

«يتكلمون عن حل يمنع إعادة إنتاج النموذج نفسه لعقود. شيء يمس الوعي لا البنية التحتية فقط».

أحمد شعر ببرودةٍ تسري في عموده الفقري وهو يقرأ.

فتح «سجل المصري الأخير» وأضاف فقرةً جديدة في تلك الليلة:

«الغرب الذي موّل أو تسامح مع الخريف بدأ يكتشف أنّ النار لا تُصدَّر دون أن تعود. الآن يبحث عن حلٍّ جذري. السؤال لم يعد: هل يتدخل؟ السؤال: بأي ثمن؟ وعلى من؟».

سلاف راجعت الفقرة وأضافت جملةً واحدة:

«ونحن على حافة أن نصبح جزءاً من الحفظ... أو من الثمن».

اللقاءات داخل الشبكة صارت أكثر توترةً وأقل تواتراً.

الجميع كان يدرك أنّ الكلام نفسه صار خطيراً. في أحد اللقاءات الصوتية القصيرة قال المؤرخ الفرنسي:

ـ إذا وصلوا إلى حلول تمس الوعي الجمعي... فالعالم الذي نعرفه سينتهي بشكلٍ لم يتخيله أحد.

فأجاب أحمد بهدوء:

ـ وإحنا شفنا نهاية عوالم قبل كده. الفرق إن النهاية دي ممكن تكون أشمل.

داخل المنزل الكندي، بين رسالةٍ وأخرى، استمر الطقس الليلي.

لكنّه صار محمّلاً بثقلٍ جديد. بعد أن يغلقا الحاسوب ويطفئا الأنوار، كانا يأتيان إلى بعضهما ببطءٍ أعمق من أي وقتٍ مضى، كأنّ الجسد يحاول أن يؤكد وجوده قبل أن يتغير كل شيء. سلاف كانت تهمس أحياناً وهو يمسكها:

ـ لو القرار اتعمل... إحنا فين؟

فيردّ أحمد وهو يبطئ حركته أكثر:

ـ مش عارفين بعد. بس دلوقتي إحنا هنا. وبنحفظ. وبنحب.

في إحدى الليالي، بعد أن وصل ملخصٌ جديد يتحدث عن «خيارات غير مسبوقة» و«تقنيات تتجاوز الرد العسكري التقليدي»، جلسا أمام المدفأة والصمت يملأ الغرفة. قال أحمد:

ـ اللجان بتتشكل. والمناقشة بقت عن حلول جذرية. والتسريب لينا مش صدفة. هم بيدروا إن في ناس حفظوا الذاكرة من الأول.

فسلاف أجابت وهي تحدّق في النار:

ـ يعني ممكن يطلبونا يوماً. مش كشهود بس... كجزء من اللي لازم يت حفظ قبل ما الصفحة تتقلب.

خارج المنزل كانت الغابة مظلمة وصامتة.

وداخله كان الشعور بالتحول الكبير يضغط على الصدر: لجان سرية، حلول غير مسبوقة، وتسريبٌ محدود يصل إلى شبكةٍ صغيرة من الرافضين القدامى. وأحمد وسلاف، اللذان طافا العالم ليبقيا في سنة ألفين وعشرة، وجدا نفسيهما الآن على حافة قرارٍ قد يغير معنى الزمن نفسه... ويضع شهادتهما وأرشيفهما وحبهما في مكانٍ لم يكونا قد تصورانه حين غادرا ميناء الإسكندرية قبل سنوات.

الفصل الثاني والثلاثون

من رواية «المصري الأخير»

وصلت الرسالة في منتصف ليلٍ كنديٍّ بارد، مشفرةً بثلاث طبقات، وموقعةً باسمٍ مستعار يعرفه أحمد وسلاف جيداً داخل الشبكة.

فتحاها معاً على الشاشة الصغيرة، وجلسا يقرآن دون أن ينبسا بكلمةٍ واحدة في البداية.

النص كان قصيراً وواضحاً بشكلٍ مخيف:

«تم اتخاذ القرار في الدائرة المغلقة.

تطوير وتفعيل تقنية واسعة النطاق ـــ عصبية/كيميائية ـــ مصممة لإعادة الوعي الجمعي إلى مستوى وظيفي قريب من العصر الحجري من حيث القدرة على التنظيم الأيديولوجي المعقد والتراكم الرمزي طويل الأمد.

البنية التحتية المادية تُبقى قدر الإمكان.

الهدف المعلن داخل الدائرة: كسر دورة إعادة إنتاج المشاريع الثيوقراطية والمليشياوية التي أثبتت قدرتها على الصمود والعودة عبر الأجيال.

التنفيذ غير محدد بتاريخ علني. التحضيرات جارية».

أحمد أغلق الملف بيده، ثم أعاد فتحه، ثم أغلقه مرةً أخيرة. قام ومشى إلى النافذة. الثلج كان يتساقط ببطء تحت ضوء الحديقة الخافت. سلاف بقيت جالسةً على الكرسي، يداها في حضنها. بعد دقائق قالت بصوتٍ أجش:

ـ هم قرروا يرجعوا عقول الناس للعصر الحجري... عشان يخلصوا من الجولاني والدبيبة وطالبان وكل اللي شبههم.

فأيّدها أحمد دون أن يلتفت:

ـ وبكده يخلصوا من القدرة على بناء أي مشروع معقد تاني... ديني أو غير ديني. الثمن هو الوعي نفسه.

جلسا بعد ذلك ساعاتٍ طويلة أمام المدفأة دون أن يشعلاها.

البرودة كانت تناسب الخبر. فتح أحمد «سجل المصري الأخير» وكتب بخطٍ أبطأ من المعتاد:

«القرار صدر. الغرب الذي ساهم في صناعة الخريف اختار أن يحرق الغابة كلها كي لا تنبت الشجرة ذاتها من جديد. الحل جذري إلى درجة أنه يلغي إمكانية الحل نفسه لعقودٍ أو قرون. نحن أمام نهاية نوعٍ من التاريخ... لا نهاية حقبة فقط».

سلاف أضافت تحتها:

«والسؤال الذي يطاردنا الآن: هل سنُدعى لنكون ضمن من يحفظون ما تبقى... أم سنُترَك في الخارج مع من سيُعاد ضبطهم؟».

في الأيام التالية تسربت تأكيدات إضافية عبر الشبكة.

المهندسة الكندية أشارت إلى تجارب أولية ناجحة على نطاقٍ محدود. العالم الألماني تحدث عن «نوافذ زمنية» و«مناطق محمية». المؤرخ الفرنسي كتب جملةً واحدة فقط:

«الإمبراطوريات القديمة كانت تقتل الأجساد. هذه تقتل القدرة على تذكر لماذا كانت الأجساد تُقتل».

داخل المنزل تغير شيءٌ في الهواء.

الطقس الليلي الهادئ استمر، لكنه صار أكثر بطئاً وأكثر امتلاءً بالصمت. بعد أن ينتهيا من الحب كانا يبقيان ملتصقين وقتاً أطول، كأنّ الجلد نفسه يحاول أن يسجل حضوره قبل أن يتغير معنى الحضور. سلاف همست مرةً وهو لا يزال داخلها:

ـ لو حصل... عايزة أكون واعية لآخر لحظة.

فأجاب أحمد وهو يمسك وجهها بكلتا يديه:

ـ وإحنا الاتنين. مش هنبعد عن بعض في اللحظة دي.

في أحد الأمسِية جاء اتصالٌ صوتي قصير من أحد أسماء الشبكة القديمة. الصوت كان متوتراً ومحسوباً:

ـ في حديث عن قوائم. ناس لازم يُحفظوا. مفكرين، علماء، شهود مبكرون. اسمكما ظهر أكثر من مرة.

ثم انقطع الخط.

أحمد وسلاف نظرا إلى بعضهما طويلاً.

لم يحتفلا، ولم يخافا بصخب. شعرا فقط أنّ الدائرة التي طافا داخلها منذ رحيل أبوللو، ومنذ توسع الشبكة، ومنذ تصاعد الحوادث، كانت تضيق الآن نحو نقطة قرارٍ شخصية. قالت سلاف وهي تضع رأسها على صدره:

ـ السجل، والأرشيف، والبيت هنا، والشقة هناك... كل حاجة بقى ليها معنى مختلف.

فأيدّها أحمد:

ـ بقينا مش بس شهود على الخريف. بقينا مرشحين لنكون جزءاً من اللي هيحاولوا يحفظوه قبل ما الصفحة تتمسح.

خارج النافذة كان الثلج يغطي قبر أبوللو والعلامة الخشبية.

وداخلهما كان القرار الكبير قد صدر في مكانٍ بعيد وسري: تقنية تعيد العقول إلى ما قبل التعقيد، كي لا يعود الجولاني ولا طالبان ولا أي مشروعٍ ثيوقراطي قادراً على إعادة بناء نفسه على أنقاض الوعي. وأحمد وسلاف، المصري الأخير والسورية التي أحبته، كانا يجلسان في المنزل الكندي... ينتظران أن تُفتح الصفحة التالية، سواء دُعيا إلى المخبأ أو تُركا في العالم الذي سيُعاد ضبطه.

الفصل الثالث والثلاثون

من رواية «المصري الأخير»

جاء الاتصال في ساعةٍ متأخرة من ليلٍ كنديٍّ صافٍ.

لم يكن مشفراً هذه المرة بالطريقة المعتادة. كان أقصر وأكثر رسمية. صوتٌ هادئ، رجالي، يتكلم العربية بلكنةٍ محايدة تقريباً، قال:

ـ أحمد... سلاف. تمت الموافقة على إدراجكما ضمن المجموعة المحدودة. مشروع الحفظ. المخبأ. التفاصيل تُرسل خلال أربعٍ وعشرين ساعة. لا تبحثا عن تأكيد إضافي. الرسالة التالية ستحمل التعليمات.

ثم انقطع الخط.

جلسا في الصالة دون أن يشعلا النور الإضافي.

ضوء المدفأة الخافت كان كافياً. سلاف قالت أولاً، وصوتها ثابت أكثر مما توقعت:

ـ دعوة رسمية.

فأيدّها أحمد وهو ينظر إلى الشاشة السوداء:

ـ إحنا اتختارنا. ضمن مجموعة محدودة من المفكرين والعلماء وبعض القادة السابقين. زي ما الشبكة كانت بتتنبأ.

في الصباح التالي وصلت الرسالة المفصلة.

خرائط أولية لمواقع محمية (أكثر من موقع، موزعة جغرافياً)، تعليمات للنقل، قائمة بالمواد المسموح والمطلوب إحضارها، وتأكيدٌ صريح على أنّ الأرشيف الرقمي الكامل ـــ كتاباتهما، السجل، وكل المعارف الإنسانية الأوسع التي ساهمت الشبكة في تجميعها ـــ يجب أن يُنقل على أسطوانات وفلاشات متعددة النسخ، محمية بطبقات تشفير متتالية، وتُوزع داخل المخبأ وفق بروتوكول محدد.

أحمد فتح الخزائن الحديدية الصغيرة التي كانا قد أعداها خلال الشهور الماضية.

أخرج الأقراص الصلبة الأربعة، والفلاشات الاحتياطية، والنسخ الورقية المختصرة من السجل التي طبعاها في سرية. سلاف جلبت صورة ناصر المطوية منذ سنوات، والجوازين القديمين، والعلامة الخشبية الصغيرة التي كانت قد نحتاها معاً بعد دفن أبوللو ونسخا عليها اسمه. قالت وهي تضعها بجانب الأرشيف:

ـ دي كمان لازم تروح معانا. جزء من الشهادة.

قضيا اليوم كله في الترتيب.

نقلا الملفات مرةً أخيرة، راجعا كل مجلد، تأكدا من سلامة التشفير، ثم صنعا ثلاث مجموعات متطابقة: واحدة تبقى معهما في الحقيبة الشخصية، واثنتان تُسلَّمان وفق التعليمات عند الوصول. المهندسة الكندية من الشبكة أرسلت رسالةً قصيرة:

«النسخ الموزعة عندنا في أمان. أنتما تحملان النسخة الحية».

في المساء جلسا على السرير في المنزل الذي صار مأواهما لسنوات.

الغرفة بدت فجأةً أصغر وأقدم. أحمد قال وهو يمسك يد سلاف:

ـ من شقة المهندسين... لسفينة المتوسط... لكل القارات... لحد هنا. ودلوقتي المخبأ.

فسلاف أجابت وهي تضغط على أصابعه:

ـ وإحنا لسه مع بعض. والسجل معانا. وأبوللو في الحديقة... بس ذكراه رايحة كمان.

الطقس الليلي في تلك الليلة كان مختلفاً.

لم يكن هناك استعجال ولا شراهة قديمة. كان هناك بطءٌ طويل وامتنانٌ صامت، كأنّ الجسدين يعرفان أنهما يدخلان مرحلةً لن يعود فيها العالم الخارجي كما كان. بعد أن هدآ، بقيت سلاف مستلقية على صدره وقتاً أطول من المعتاد. قالت:

ـ لو دخلنا... هنكون من اللي حافظوا على الذاكرة.

فأيدّها أحمد:

ـ ولو ما دخلناش... هنكون من اللي شافوا النهاية بعيون مفتوحة. في الحالتين... إحنا عملنا اللي قدرنا عليه.

في الصباح التالي بدأت إجراءات المغادرة وفق التعليمات.

أغلقوا المنزل الكندي بهدوء، وتركوا مفتاحاً مع شخصٍ موثوق من الشبكة للعناية بالقبر والحديقة إن أمكن. حملا الحقيبتين الخفيفتين، والأرشيف المحمي، وصورة ناصر، والجوازين، والعلامة الخشبية الصغيرة. قبل أن يغلقا الباب النهائي، نظر أحمد إلى الغابة مرةً أخيرة وقال:

ـ شكراً على السنين اللي قدرتينا نتنفس فيها.

الطائرة الصغيرة التي أقلتهما لم تكن رحلةً تجارية.

كانت جزءاً من البروتوكول. سلاف أمسكت يده طوال الوقت تقريباً، كما أمسكتها في إقلاع دمشق القديم وفي إقلاع الإسكندرية. همست وهي تنظر من النافذة إلى الأرض الكندية وهي تبتعد:

ـ الرحلة دي مختلفة عن كل الرحلات.

فضغط أحمد على يدها وردّ:

ـ لأن الوجهة دي المرة مش مدينة ولا معبد ولا شاطئ. الوجهة هي الحفظ نفسه.

تحتهم كانت كولومبيا البريطانية تختفي تدريجياً.

أما هما، مع الأرشيف الكامل على الأسطوانات والفلاشات المحمية، فكانا يتجهان نحو المخبأ... ضمن مجموعةٍ محدودة اختيرت لتحمل ما يمكن إنقاذه من الوعي المعقد قبل أن يُفعَّل القرار الذي اتُخذ في الغرف السرية. المصري الأخير والسورية التي أحبته كانا يدخلان الآن المرحلة التي طالما أحسا بها من بعيد... مرحلة أن يصبحا جزءاً من الذاكرة التي ستبقى بعد أن يُعاد ضبط الباقي.

الفصل الرابع والثلاثون

من رواية «المصري الأخير»

وصلوا إلى الموقع في ساعةٍ لا يعرفان إن كانت فجراً أو مساءً.

الطائرة الصغيرة هبطت في منطقةٍ جبلية نائية، ثم نقلتهما مركبةٌ مغلقة عبر طرقٍ فرعية حتى بابٍ صخريٍّ يبدو كجزء من الجبل نفسه. دخلوا مع مجموعةٍ صغيرة أخرى: وجوهٌ بعضها مألوف من الشبكة، وبعضها غريب تماماً. لم يُطرح عليهم أسئلة كثيرة. سُلّموا بطاقاتٍ رقمية، وخضعوا لفحوصاتٍ سريعة، ثم أُدخلوا عبر ممراتٍ متتالية منخفضة الإضاءة.

المخبأ كان أعمق وأوسع مما تخيلأحمد.

طوابق متعددة، ممرات بيضاء نظيفة، غرف معيشة صغيرة مستقلة، قاعات مشتركة، مختبرات مغلقة، ومخازن للأرشيف. الهواء كان مفلتراً وذا طعمٍ معدني خفيف. الإضاءة صناعية بالكامل، لكنها قابلة للتعديل لتشبه دورة النهار والليل. حين أُغلقت الأبواب الخلفية خلفهم شعر كلاهما أنّ شيئاً كبيراً قد انقطع: السماء، والريح، وصوت الأشجار، وإمكانية الخروج متى شاءا.

غرفتهما كانت بسيطة ونظيفة.

سرير مزدوج، مكتب صغير، حمام، ورفوف جاهزة لاستقبال الأرشيف. وضع أحمد الأسطوانات والفلاشات في الخزانة المخصصة، وأخرج صورة ناصر والعلامة الخشبية الصغيرة ووضعها على المكتب. سلاف فتحت الحقيبة وأخرجت الملابس القليلة التي سُمح لهما بإحضارها. قال أحمد وهو ينظر إلى الجدران الملساء:

ـ هنا هنعيش الفترة الجاية.

فسلاف أجابت وهي تجلس على طرف السرير:

ـ وهنا هنحاول نفضل إحنا.

الروتين تشكل بسرعة.

صباح اصطناعي، وجبة جماعية في القاعة المشتركة مع بقية المجموعة المحدودة، ثم ساعات للعمل على الأرشيف أو في نقاشاتٍ منظمة حول ما يجب حفظه وكيف. كانوا يتبادلون المعارف: تاريخ، علوم، فلسفة، تقنيات، لغات. أحمد وسلاف ساهموا بما لديهما من سجلٍ حيٍّ عن الخريف العربي وبداياته. في المساء كانت هناك ساعةٌ حرة، ثم العودة إلى الغرف.

العلاقة الجسدية والعاطفية استمرت، لكنّها تغيرت شكلها.

الجدران كانت عازلة للصوت إلى حدٍ كبير، لكنّ الشعور بالرقابة غير المرئية كان موجوداً. صار الحب أكثر هدوءاً وهمساً، وأكثر امتناناً للحظات الخصوصية. بعد أن ينتهيا كانا يبقيان ملتصقين تحت الغطاء وقتاً طويلاً، يتحدثان بصوتٍ منخفض عن اليوم، عن الوجوه الجديدة، عن الخوف الصامت من لحظة التفعيل. سلاف قالت مرةً وهو يمسكها:

ـ حتى هنا... الجسد لسه المساحة اللي تخصنا لوحدنا.

فأيدّها أحمد بقبلةٍ على كتفها.

المراقبة جاءت عبر أنظمةٍ محدودة جداً.

في قاعةٍ مركزية كانت هناك شاشات تعرض صوراً مشفرة ومقاطع قصيرة من العالم الخارجي: مدن، طرق، تجمعات بشرية. الصور كانت نادرة ومقطعة، لكنها كافية ليرى الجميع أنّ الحياة تستمر في الخارج... بطريقةٍ مختلفة تدريجياً. في أحد الأيام ظهرت مشاهد لسلوكٍ جماعي أبسط، أقل تنظيماً أيديولوجياً، أكثر ارتباطاً بالحاجات المباشرة. همس أحد العلماء في القاعة:

ـ بدأ التأثير يظهر في بعض المناطق التجريبية.

فشعر أحمد وسلاف ببرودةٍ تسري في المكان كله.

في ليالي المخبأ كان الصمت أثقل مما كان في المنزل الكندي.

لا رياح، لا ثلج، لا صوت أشجار. فقط هدير الأنظمة البعيد وهمس المحادثات في الممرات. بعد أن يطفئا النور كانا يستلقيان ويتحدثان عن أبوللو أحياناً، عن شارع الصليبة، عن سفينة المتوسط، عن الاتفاق القديم الذي حاولوا أن يعيشا داخله كأنّ الزمن توقف في 2010. قالت سلاف ذات ليلة:

ـ الاتفاق القديم انتهى. دلوقتي اتفاق جديد: إننا نفضل واعيين... ونحفظ.

فأيدّها أحمد:

ـ ونفضل مع بعض لأقصى حد ممكن.

الأيام كانت تمر ببطءٍ منتظم داخل الإضاءة الاصطناعية.

المجموعة المحدودة صارت تعرف بعضها أكثر: حوارات طويلة عن معنى ما سيحدث، عن أخلاق القرار، عن احتمال أن يكون الحفظ نفسه شكلاً جديداً من السلطة. أحمد كان يستمع أكثر مما يتكلم، ويكتب في نسخةٍ داخلية من السجل كل مساء. سلاف كانت تراجعه، وتضيف ملاحظاتها عن الوجوه والأصوات والمخاوف المشتركة.

في إحدى الأمسيات، بعد مشاهدةٍ قصيرة على الشاشات المركزية أظهرت تغييراً أوضح في سلوك مجموعاتٍ بشرية خارجية، جلسا في غرفتهما والصمت يملأ الفراغ. قال أحمد:

ـ العالم بره بيبدأ يتغير. وإحنا هنا بنراقبه من بعيد... زي اللي بيراقب حريقاً من خلف زجاج سميك.

فسلاف أجابت وهي تأخذ يده:

ـ الزجاج هيحمي الوعي بتاعنا. بس مش هيحمي إحساسنا إننا اتغيرنا كمان بمجرد دخولنا.

خارج الجدران الصخرية كان العالم يتجه نحو اللحظة التي سيُفعَّل فيها القرار بالكامل.

وداخلهما، في الغرفة البسيطة داخل المخبأ، كان المصري الأخير والسورية التي أحبته يحاولان أن يبنيا روتيناً جديداً: عمل، حوار، جسد هادئ وعميق، ومراقبة محدودة لما يحدث لمن تُركوا في الخارج. الاتفاق القديم على العيش في ألفين وعشرة كان قد انتهى. أما الاتفاق الجديد فكان أبسط وأثقل: أن يبقيا واعيين، وأن يحفظا ما يمكن حفظه، وأن يظلا معاً حتى آخر لحظة تسمح بها الأنظمة والجدران والزمن الجديد الذي كان يقترب.

الفصل الخامس والثلاثون

من رواية «المصري الأخير»

لم يُعلن عن لحظة التفعيل بصفارةٍ أو خطاب.

جاء الإشعار عبر الشاشات المركزية في القاعة المشتركة: جملة واحدة قصيرة باللون الأحمر، ثم اختفت.

«التنفيذ جارٍ وفق البروتوكول».

أحمد وسلاف كانا جالسين بين بقية المجموعة حين ظهرت الجملة.

لم يتحرك أحد في البداية. ثم قام بعضهم واقترب من الشاشات التي بدأت تعرض صوراً متقطعة من مدنٍ مختلفة. التغيير لم يكن انفجاراً ولا دخاناً. كان أهدأ وأعمق. وجوه الناس في الشوارع بدت تدريجياً أقل تركيزاً على اللافتات والهواتف، أكثر انشغالاً بالحركة المباشرة والحاجة المباشرة. التجمعات الكبيرة التي كانت تحمل شعاراتٍ معقدة تفرقت إلى مجموعاتٍ أصغر تبدو أقرب إلى البحث عن طعام أو مأوى أو مجرد البقاء في المكان.

أحد العلماء همس:

ـ الوعي الرمزي المعقد ينحسر. القدرة على بناء سرديات طويلة الأمد تضعف.

فشعر أحمد أنّ شيئاً داخل صدره ينقبض.

في الساعات التالية راقبوا المزيد.

المدن لم تنهار مادياً. القطارات كانت لا تزال تعمل في بعض المناطق، والكهرباء لم تنقطع بالكامل، لكنّ الإيقاع البشري تغيّر. الخطابات الطويلة اختفت من الشاشات الخارجية. الشعارات الدينية والسياسية المعقدة صارت أقل فهماً وأقل جذباً. الناس كانوا يتحركون، يأكلون، يتزاوجون، يبنون ملاجئ بسيطة... لكنّ القدرة على تنظيم مشروعٍ أيديولوجي عابر للأجيال بدت وكأنها تُسحب ببطء من تحت أقدامهم.

سلاف أمسكت يد أحمد بقوة وقالت بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

ـ حصل.

فأيدّها هو برأسه فقط.

الأيام الأولى بعد التفعيل كانت ثقيلة داخل المخبأ.

الحوارات في القاعات المشتركة طالت لساعات. بعضهم رأى في ما حدث إنقاذاً ضرورياً للبشرية من دورة العنف الثيوقراطي. وآخرون رأوا فيه جريمةً ضد جوهر الإنسان نفسه. أحمد جلس في إحدى هذه الحلقات واستمع طويلاً قبل أن يقول:

ـ إحنا شفنا الجمهوريات بتتهدم باسم الربيع. وشفنا الجولاني وطالبان والدبيبة بيطلعوا من تحت الركام. الغرب اختار يقطع الدورة من جذر الوعي. الثمن هو إن معظم البشر مش هيقدروا تاني يبنوا حاجة معقدة زي اللي اتهدمت... ولا زي اللي كنا بنحلم بيها.

سلاف أضافت من جانبه:

ـ وإحنا هنا لأننا اتختارنا نفضل فاكرين. دي مش مكافأة... دي مسؤولية ثقيلة.

السنوات التالية مرت داخل الإضاءة الاصطناعية والروتين المحسوب.

أحمد وسلاف عاشا كناجين واعيين يحملان الذاكرة. كانا يعملان يومياً على الأرشيف: يرتبان، يشرحان، يسجلان شهادات إضافية من الآخرين داخل المجموعة. في المساء كانا يعودان إلى غرفتهما، حيث استمر الجسد في حضوره الهادئ والعميق. الحب صار أكثر ندرةً في تعبيره الخارجي، لكنه أشد كثافةً في لحظاته. بعد كل مرة كانا يبقيان مستيقظين ويتحدثان عن معنى ما حدث.

قال أحمد ذات ليلة بعد سنوات من التفعيل:

ـ الحضارة اللي حفظناها مش بس ملفات وأسطوانات. هي القدرة على طرح السؤال نفسه: ليه حصل اللي حصل؟ وإيه الثمن؟

فسلاف أجابت وهي تضع رأسها على صدره:

ـ وإحنا الاتنين جزء من الإجابة. لأننا رفضنا من الأول، وطفنا العالم، وكتبنا السجل، ودخلنا هنا.

كانا يراقبان العالم الخارجي عبر الأنظمة المحدودة كلما سُمح بذلك.

الصور صارت تظهر مجتمعاتٍ أبسط: زراعة محدودة، تجارة مباشرة، علاقات قبلية أو محلية، غياب شبه كامل للتنظيمات الأيديولوجية الكبيرة التي كانت تملأ الشاشات قبل التفعيل. لا جولاني جديد يخطب في الساحات، لا طالبان تعيد بناء إمارة على أنقاض دولة، لا مليشيات ليبية تتفاوض باسم الشرعية. الدورة انكسرت... ومعها انكسر شيءٌ أساسي في قدرة البشر على التعقيد.

في إحدى الليالي الطويلة، بعد أن راجعا معاً فصلاً من السجل يعود إلى صيف مصر وشتاء سوريا، قال أحمد:

ـ إحنا دلوقتي من آخر الناس اللي عارفين إن في حاجة اسمها ناصر، وإن في حاجة اسمها وحدة عربية اشتراكية، وإن في ربيع اتسمى ربيعاً وهو كان خريفاً.

فسلاف أمسكت وجهه بكلتا يديها وقالت:

ـ وإحنا كمان من آخر الناس اللي عارفين إن الحب ممكن يكون رحلة بين المعابد والآثار والمدن... وإن الجسد ممكن يكون آخر مساحة حرة.

الصمت ملأ الغرفة بعد ذلك.

خارج الجدران الصخرية كان العالم الجديد يسير بإيقاعه البدائي النسبي. وداخلهما كان الناجيان الواعيان يحملان الذاكرة كلها: من أول نظرة في الزمالك، إلى السفينة، إلى كل القارات، إلى موت أبوللو، إلى اللجان السرية، إلى لحظة التفعيل. وكانا يعرفان أنهما سيظلان يحملانها حتى آخر نفس... شاهديْن على حضارةٍ حفظاها داخل الأسطوانات والقلوب، وعلى ثمنٍ دُفع كي لا تتكرر الدورة التي كسراها العالم بأيديه.

الفصل السادس والثلاثون

من رواية «المصري الأخير»

مرت السنوات داخل المخبأ بإيقاعٍ منتظم وبطيء.

الإضاءة الاصطناعية كانت تحاكي الفصول، لكنّ الجسد كان يعرف الحقيقة. شعر أحمد بالتعب أولاً: صعوبة في النهوض السريع، ألمٌ مزمن في الظهر، حاجةٌ متزايدة إلى الجلوس أثناء العمل على الأرشيف. سلاف لاحظت قبله، وكانت تضع يدها على كتفه كل صباح وتسأله بعينها. كان يبتسم ابتسامةً قصيرة ويقول:

ـ لسه ماشيين.

ثم جاء دورها.

السعال الذي بدأ خفيفاً في شتاءٍ اصطناعي لم يختفِ. الفحوصات داخل المخبأ أكدت ما كانا يخشياته. لم يكن هناك علاج سحري، فقط تباطؤ وإدارة للألم. جلسا في غرفتهما بعد سماع النتيجة، والصمت يملأ الفراغ بين الأجهزة البعيدة. قالت سلاف بصوتٍ هادئ:

ـ الدور جه.

فأيدّها أحمد وهو يمسك يديها بكلتا يديه:

ـ جه... وإحنا لسه مع بعض.

السنوات الأخيرة صارت أبطأ وأكثر صفراء في أطرافها.

كانا يقضيان ساعاتٍ أطول في الغرفة، يراجعان السجل معاً بصوتٍ عالٍ أحياناً، كأنّ القراءة تعيد الحياة إلى الصفحات. الجسد الذي كان طقساً ليلياً هادئاً صار أندر وأرقّ. في الليالي التي يستطيعان فيها الاقتراب كان

الاقتراب نفسه وداعاً متكرراً: لمساتٌ بطيئة، أنفاسٌ مشتركة، صمتٌ طويل بعد كل شيء. بعد إحدى هذه الليالي همست سلاف وهو لا يزال يحتضنها:

ـ كل مرة بقت كأنها الأخيرة.

فأجاب أحمد وهو يقبل شعرها الأبيض الذي زاد كثيراً:

ـ عشان كده بنعملها بكل اللي فاضل فينا.

المرض تقدم بخطواتٍ غير متساوية.

في بعض الأيام كانا يستطيعان النزول إلى القاعة المشتركة والمشاركة في حوارٍ قصير عن الذاكرة والحفظ. وفي أيامٍ أخرى كانا يبقيان في الغرفة، سلاف مستلقية وأحمد جالسٌ إلى جانبها يقرأ لها مقاطع من السجل: وصف الأهرامات، ليلة دمشق الأولى، ركض أبوللو في الثلج، لحظة دخول المخبأ. كانت تبتسم أحياناً وتغلق عينيها وهي تسمع.

ثم جاءت لحظة الوداع الهادئ.

في صباحٍ اصطناعي باهت أمسكت سلاف يد أحمد بقوةٍ لم تكن متوقعة من جسدها النحيل. نظرت إليه وعيناها صافيتان تماماً وقالت:

ـ أنت المصري الأخير اللي عرفتها. واللي فضلت أحبه لآخر نفس.

فأجابها وهو يبتلع غصةً كبيرة:

ـ وإنتِ السورية الأخيرة اللي قدرت أحبها بهذا العمق. كنا آخر اثنين في زمنٍ اتفتت... وفضلنا مع بعض لحد هنا.

ظلت تمسك يده حتى هدأ تنفسها تدريجياً وصار أبطأ فأبطأ... ثم توقف.

أحمد بقي جالساً إلى جانبها ساعاتٍ طويلة بعد أن أعلن الطبيب الداخلي داخل المخبأ انتهاء الأمر. لم يصرخ، ولم ينهار أمام الآخرين. فقط ظلّ يمسك اليد التي صارت باردة، ويمسح على شعرها كما كان يفعل في ليالي المهندسين القديمة.

بعد رحيلها بأيامٍ قليلة بدأ جسده هو أيضاً في التداعي السريع.

كأنه كان ينتظر أن تكمل هي أولاً. رفض أن ينتقل إلى غرفة العناية الأطول، وبقي في غرفتهما. طلب أن تُترك صورة ناصر والعلامة الخشبية لأبوللو والسجل مفتوحاً على آخر صفحة كتباها معاً. في الليلة التي سبقت رحيله جاءه أحد رفاق الشبكة القديمة وسأله إن كان يريد أن يملي شيئاً أخيراً. ابتسم أحمد ابتسامةً ضعيفة وقال:

ـ كل حاجة مكتوبة. السجل كامل. وإحنا الاتنين فيه.

في الصباح التالي وجدوه هادئاً على السرير، يده ممدودة نحو الجانب الذي كانت تنام فيه سلاف.

كان الوجه مسترخياً، كأنّه أغلق عينيه في منتصف جملةٍ كان يهمس بها لها.

نُقل الجسدان وفق بروتوكول المخبأ.

جزء من الرماد حُفظ داخل الأرشيف نفسه، في علبةٍ صغيرة وُضعت إلى جانب الأسطوانات. والجزء الآخر أُعدّ للنقل لاحقاً حسب الوصية التي كانا قد كتباها معاً قبل سنوات: أن يُدفن ما يمكن دفنه قرب المنزل في كولومبيا البريطانية، وأن يُحفظ أثرهما في البيت القديم قرب شارع الصليبة.

داخل المخبأ ساد صمتٌ ثقيل لأيام.

الناجون الواعون الآخرون عرفوا أنهما كانا من أوائل من رفضوا، ومن أطول من حفظوا، ومن آخر من رحلا وهما ما زالا يحملان الذاكرة كاملة. أما السجل فقد بقي مفتوحاً على الخادم الداخلي، ينتظر من يقرأه بعدهما... شاهداً أخيراً على رجلٍ من برج العذراء وامرأةٍ من برج الجوزاء أحبا بعضهما عبر الخريف كله، ودخلا المخبأ معاً، وخرجا من الحياة في توقيتٍ متقارب... تاركين خلفهما كل ما استطاعا إنقاذه من صيفٍ قديم وعالمٍ كان يمكن أن يكون أجمل.

الفصل السابع والثلاثون

من رواية «المصري الأخير»

بعد أن هدأ الصمت داخل المخبأ، بدأت الترتيبات التي كانا قد أوصيا بها معاً قبل سنوات.

نُقلت العلبة الصغيرة التي تحتوي على جزء من رمادهما مع نسخةٍ كاملة من الأرشيف إلى العالم الخارجي عبر القنوات المحمية المتبقية. الجزء الآخر من الرماد أُرسل في رحلتين منفصلتين: واحدة إلى القاهرة، وأخرى إلى كولومبيا البريطانية.

في القاهرة، البيت القديم القريب من شارع الصليبة كان لا يزال قائماً.

الجدران تشققت قليلاً بفعل الزمن والإهمال النسبي في العالم الجديد، لكنّه لم يُهدم. مجموعة صغيرة من الذين ظلوا واعين — بعضهم من بقايا الشبكة القديمة، وبعضهم ممن اكتشفوا السجل بالصدفة عبر النسخ الموزعة — تولت العناية بالمكان. رمموا الغرف بهدوء، وأعادوا ترتيب المكتب كما كان، وعلقوا صورة عبد الناصر في مكانها القديم فوقه. على الرفوف صفت الدفاتر الأصلية والنسخ المطبوعة من «سجل المصري الأخير»، وإلى جانبها صورة لأبوللو شوجركين في أيامه الأولى، والعلامة الخشبية التي نُقلت نسخةٌ منها من كندا.

صار البيت مزاراً صغيراً صامتاً.

لا لافتات كبيرة، ولا حراسة مشددة. فقط بابٌ يُفتح لمن يعرف أو لمن يسأل بهدوء. الزوار كانوا قليلين في البداية: أناس يجلسون ساعاتٍ طويلة يقرأون صفحات من السجل، أو يلمسون المكتب، أو ينظرون من الشرفة

إلى الحارة الضيقة التي لم تعد تشبه ما كانت عليه في ألفين وعشرة. مع مرور الوقت صار المكان يُعرف بين من تبقى لديهم فضولٌ أو ذاكرةٌ جزئية باسم «بيت المصري الأخير».

أما في كولومبيا البريطانية، فقد نُفذ الجزء الآخر من الوصية بدقة.

على القطعة الصغيرة من الأرض جوار المنزل الخشبي الذي سكنا فيه سنوات، أُقيم ضريحٌ رخامي بسيط ونظيف. التماثيل الملائكية التي أوصيا بها لم تكن مسيحيةً تقليدية ولا إسلامية؛ كانت أقرب إلى الأرواح الحارسة في التصورات القديمة التي أحباها: أجنحةٌ مفتوحة، وجوهٌ هادئة، أيدٍ لا تشير إلى السماء بقدر ما تحيط بالمكان. نُقش على القاعدة باللغتين العربية والإنجليزية اسميهما، وتاريخان تقريبيان، وجملة واحدة اختاراها معاً قبل الرحيل:

«أحبا في زمنٍ يتفتت... وحفظا ما استطاعا».

القبر الصغير لأبوللو ظلّ في مكانه تحت الشجرة، وصارت العلامة الخشبية جزءاً من الزيارة.

الزوار هنا كانوا أيضاً قليلين، لكنهم يأتون من مسافاتٍ أبعد أحياناً: باحثون عن أثر، أو ناجون واعون من أماكن متفرقة، أو أناس يقرأون السجل ويشعرون أنّ المكان يكتمل الصورة. يقفون أمام الضريح الرخامي، ثم يمرون على قبر القطّ، ثم يجلسون على الدرجة الخشبية القديمة للمنزل الذي لم يعد مأهولاً بشكلٍ دائم.

العالم من حول المكانين كان قد استقر على إيقاعه الجديد.

معظم البشر يعيشون حياةً أبسط: زراعة، صيد محدود، تجارة مباشرة، علاقات محلية، غياب شبه كامل للمشاريع الأيديولوجية الكبرى التي كانت تمزق القارات. لا جولاني يخطب، لا طالبان تعيد بناء إمارة، لا مليشيات تتفاوض باسم شرعياتٍ معقدة. الدورة انكسرت كما أراد من اتخذ القرار. لكنّ الثمن كان الوعي نفسه عند الأغلبية.

أما القلة التي بقيت واعية — سواء داخل المخابئ المتبقية أو خارجها بالصدفة أو بالمقاومة الصامتة — فكانت تعرف أنّ الذاكرة لم تُمسح بالكامل.

السجل كان لا يزال يُنسخ ويُقرأ في دوائر ضيقة. والبيت في شارع الصليبية والضريح في كولومبيا البريطانية صارا نقطتين على خريطةٍ غير رسمية لمن يبحث عن أثر الرجل والمرأة اللذين رفضا تسمية الخريف ربيعاً، وطافا العالم، ودخلا المخبأ، وحملا الذاكرة حتى النهاية.

لا أحد يقف أمام الضريح أو داخل البيت يعد بالعودة إلى الناصرية أو إلى أي مشروعٍ سياسي قديم.

الزيارة نفسها صارت شكلاً من أشكال الاعتراف: أنّ هناك من رأى، ومن كتب، ومن أحب، ومن حفظ. وأنّ الحضارة — حتى بعد أن أُعيد ضبط معظم العقول — تترك دائماً شقوقاً صغيرة تتسرب منها الذاكرة.

في أحد الأيام الهادئة، وقف زائرٌ مجهول أمام التماثيل الملائكية في كولومبيا البريطانية، وقرأ الجملة المنقوشة، ثم همس لنفسه قبل أن يرحل:

ـ المصري الأخير... والسورية التي أحبته.

ثم انصرف.

والريح مرّت بين الأشجار، والثلج بدأ يتساقط مرةً أخرى على الضريح وقبر القطّ والمنزل الخشبي... بينما في القاهرة، على بعد قارات، كان بيت شارع الصليبة يفتح بابه لمساءٍ آخر من القراءة الصامتة.

وهكذا بقيت القصة.

ليس كانتصار، ولا كهزيمة كاملة.

بل كذاكرةٍ مزدوجة في مكانين بعيدين... تشهد أنّ رجلاً وامرأةً حاولا، في زمنٍ يتفتت، أن يبنيا عالماً صغيراً من الحب والرفض والحفظ... وأنّ هذا العالم الصغير لم يُمحَ تماماً حتى بعد أن عاد معظم البشر إلى بساطةٍ قاسية تشبه ما قبل التعقيد.

نهاية.